66

حديث القمر

المكتبة الأهلية بمصر

حديث القمر

بقلم

مصطفى صادق الرافعي

كتب على نمط خاص يجعل طالب الانشاء
بادمان قراءته وتأمله منشئاً . اذ يربي فيه
ملكة التخيل التي هى أصل فى البلاغة
ولا بلاغة بدونها

١٣٤٠ هـ — الطبعة الثانية — ١٩٢٢ م

مصححة مضافاً اليها بعض شروح

مطبعة القاهرة بجوار قسم الجمالية بمصر



ترسل (بيان) قائمة كتبها — مجانا — لمن يطلبه

وعنوانها : صندوق البوسطه ٩١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

غرض الكتاب

هـذه مقالة صرفتُ فيها وجه الحديث الى القمر وبعثتُ الى الكون في أشعة الفجر كلماتِها .

ولقد كان القمر بضيائه كأنهُ ينبوعٌ يتفجرُ في نفسي فكنت أشعر بمعاني هذا الحديث كما يشعر الظمآنُ اللهفُ قد بلغَ الريَّ وتندى الماء على كبدِه (١) فأحسَّ بروحه تتراجع كأنما تحدِرها قطراتُ الماء .

ونشرتُ على خيوط القمر ليلاً من ليالي الجمال دونه شبابُ الشاعر الغزِل (٢) إذ يمتدُّ مع ألحاظ فاتنته الحسناء ولا يزال يتلألأ كلما استطار في آفاقه ابتسامُها .

---

(١) كناية عن بل الظمأ (٢) أي الشباب

وكنت أرى الطبيعة[١] وقد شفت لعيني كأنها أخرجت حقائقها لتغسلها من ظنون الناس وأوهامهم بهذا الضياء المتبسط المرتعد كأنما هو عرق يرفض من جبين السماء وقد تخشعت من جلال الله وخشيته إذ يتجلى عليها. فما فرغتُ من تصوير الأثر الذي تركته تلك الرؤية فى نفسي حتى رأيت هذه المقالة فى يدي وكأنى أحملها رسالة تعزية من الطبيعة الى العالم.

كتبتها وأنا أرجو أن تكون الطبيعة قد أوحت اليّ بقطعة من مناجاة الانبياء التى كانت تستهلّ فى سكون الليل فيعيها كأنه ذاكرة الدهر. وأن تكون قد بثّت فى ألفاظي صدًى من تلك النغمات الأُولى التى كان يتغنّى بها أطفالُ الانسانية[٢] فتخرج من أفواههم ممزوجة بحلاوة

---

(١) حيثما أطلقنا (الطبيعة) فيما نكتب فانما نريد بها هذا النظام الالهى الذي طبعت عليه الكائنات أو الكائنات نفسها على هذا النظام (٢) أهل الفطرة وسلامة القلب

الايمان الفِطْري ، وتذهب فى السماء متهادية كأَنها طائرة
بروح من اطمئنان قلوبهم ، وتسيل في ضوء الصباح وظل
الشمس ونور القمر كأَنها فى جمال هذه الطبيعة أفكارُ طيورٍ
مُغَرِّدةٍ تدور على ألسنتها .

وكتبتها وأنا آملُ أن تكون الطبيعة قد ألقت فى
معانيها بذوراً من عناصر التحوُّل الأخلاقي تزكو [١] في
هذه القلوب الحيوانية التى لو نُقِلت الى جوانح البهائم
لعاشت بها . . . وهذه النفوسِ التى تذلُّ لأَحقر من فى
الأرض ولا تثور الا على السماء ، وهذه العقولِ التى تحاول
أن تكتب للروح تاريخاً أرضياً يبتدئُ وينتهي فى التراب [٢]
فتكون الحقيقة الالٰهيـة التى لا يُدركها الانسان بسبيلٍ
من الوهم الانسانيّ الذي لا يُدرك الحقيقة .

وكتبتها وأنا أطمع أن تكون الطبيعةُ قد نفخت
فيها نَسْمة الحياة للعواطف الميتة المُدْرَجَة فى أكفانٍ من

---

(١) أي تنمو (٢) هى عقول الذين لا يؤمنون بشيء وراء العقل

الحوادث الدنيئة[1] . فان هموم العيش لا تُميت من عواطف القلوب الا تلك التى لا تعرف كيف تستمدُّ الحياة من روح الطبيعة ، وانما يكون استمدادها من مادتها فتحيا بخبرٍ وتموت بخبَر ، وقد تمضي كالوحش الذي يرميه الصائد ولا يُصْميه[2] ، فينفرُ حاملاً جنبَه وفى جرحه الموت والحياة معاً .

وكتبتها أتناول ألفاظها من تحت لساني[3] وأكشف من قلبي معانيها وأنفُضُ عليها ألوان الطبيعة التى تصورّ أحلام النفس وخيَالاتِها . وأنا أرجو أن أكون قد وضعتُ لطلبة الانشاء المتطلّعين الى هذا الأسلوب أمثلةً من علم التصوُّر الكتابي الذي تُوضَع أمثلتُه ولا توضَع قواعدُه ، لان هذه القواعد فى جملتها إلهامٌ ينتهي الى الاحساس ، وإحساسٌ ينتهي الى الذوق ، وذوقٌ يُفيض الإحساس

(١) عواطف أهل الشهوات (٢) أى لا يقتله (٣) كناية عن عدم التكلف

والالهام على الكتابة جميعاً فيترك فيها حياة كحياة الجمال لا تُداخِلُ الروحَ حتى تستبدَّ بها ولا تتصلُ بالقلب حتى تستَحْوِزَ عليه فتكون له كأنها فِكرةٌ فى ذاته .

وكل علوم البلاغة انما تدور على شرح أمثلة بليغة وغير بليغة فما من كاتب يحاول أن يستفيد تصورَه من هذه العلوم على أن يُنزِلها فى ذلك منزلة الاصول والضوابط الا انتهى الى مَلَكَة علمية تتصل منه بعقل جامد كأنه غلافٌ لفظيٌّ نسجته القواعد والأمثال ، فالى أن يعقد الموتُ لسانَه لا تكون قيمة عمره قد أربَتْ فى البلاغة على ثمن كتاب من كتب علوم البلاغة .. ! ولا غَرْوَ فان من ضلال العقل أن يعمل المرء لمقدَّمات متسلسلة يُنتج بعضها بعضاً وليس لمجموعها نتيجة .

وحسبُ مثل هذا عقاباً (بليغاً) فى رَجْع أمره [1] أنه لا يزال ينشر أُذُنيه على البلاغة طمعاً فيها وهو موقن

---

(١) مصير أمره

باليأس منها وذلك ضَرْبٌ من المَطْمَع لا تُبتلى النفوس بأشدَّ منه حتى ان نفس الأَثيم الذي انسلخ من الفضيلة لتقرُّ على كثير من أنواع العذاب ولا يعذّبها شيء كرؤية هذا المجرم للفضيلة فى غيره وهو يعرف أنه لن يستطيع أن يُحرزها لنفسه .

البلاغة التى حار العلماء فى تعريفها على كثرة ماخلطوا لا تَعْدو كلمتين : قوةُ التصور والقوةُ على ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة . وهما صِفتان من قُوَى الخَلْق تقابلان الإبداع والنظام في الطبيعة . وبهما صار أفراد الشعراء والكتاب (١) يخلقون الأُمم التاريخية خلقاً وربَّ كلمة من أحدهم تَلِدُ تاريخ جيل .

فاذا مُسِخ التصور فى الانشاء فجاء كتصور المريض . وشَرد الخيال فذهب كخيال المجانين وأُدير الانشاء بعد ذلك على أنه بليغ فاعلم انها بلاغة العصور الذاهبة فى

(١) أي المتفردون

الانحلال بآفات الاجتماع وأمراضـه فيكون طابعها فى الاصطلاح مَرَضاً من نفسها . ولقد فشا ذلك في العربيـة حَوالَ القرن الخامس للهجرة الى عهدنا فثمّ عالَمٌ من الشعراء والكتاب بلا شعر ولا كتابة (١)

وما البليغ الا ذلك الذي يستطيع ان يُؤتيـك طبائع الاشياء — التى تجهلها — فى غير صُوَرها ثم أنت لا تعرفها من كلامه الاّ فى صورها فكأنه ناسَبَ بين قوتها وضعفك بصناعته وسحره إذ يُمازِجُها بخيال قوي كالعقل يوازِن ضعفك . وحقيقةٍ ضعيفة كالقلب تُوازن قوتها . وهو لا يتسلط على طبيعتها الا بتصوره ولا يستهوى طبيعتك الا بقدرته على ضبط النسبة بينك وبينها .

فالبلغاء هم أرواح الأديان والشرائع والعادات وهم فى

---

(١) ستظهر فلسفة هـذا التاريخ مبسوطة فى موضعها من المجلد الرابع من كتابنا « تاريخ آداب العرب » عنـد القول على الانشاء العربى وأساليبه وتاريخه .

الارض ألسنة السماء والأرض ، واذا شهد عصر من العصور أمةً ليس فيها بليغ فـذلك هو العصر الذي يكون تاريخاً صحيحاً لأضعف طبائع الامم .

وكتبتُ هذه المقالة وبحسبي منها ان يكون عند الحقيقة ذُخْرُها . وعند الجمال شكرُها ، وعند الله أجرُها .

مصطفى صادق الرافعي

الفصل الاول

أيها القمر !

الآنَ وقد أظلم الليل وبدأت النجومُ تنضح وجهَ الطبيعةِ التى أعيَتْ من طول ما انبعثت فى النهار برشاش من النور النَّدىّ يتحدَّر قطراتٍ دقيقةً منتشرةً كأنها فى رَوْحِها أنفاسٌ تتثاءب بها الامواج المستيقظة فى بحر النسيان ذلك الخِضَمُّ الدهريُّ الذى تجري فيه السفُن الكبيرة من قلوب عشاق مهجورين برَّحت بهم الآلام، والزوارقُ الصغيرة من قلوب أطفال مساكينَ تنتزعها منهم الأحلام. تلك تحمل الى الغيب تعَباً وترَحاً، وهذه لعباً وفرحاً. والغيب كسجلٍّ اسماء الموتى تختلف فيهِ الألقاب، وتتباين الاحساب والأنساب، وتتنافر معانى الشَّيب من معانى الشباب، وهو [1] يُعْجَب من الذين يسمُّونهُ

(١) أي سجل أسماء الموتى

بغير اسمه ولا يعلمون انهُ كتاب فى تاريخ عصر من عصور التراب .

والآن وقد بدأت الطبيعة تتنهد كأنها تنفّس بعض اكدارها ، أوهي تملي فى الكتاب الأسود[١] أخبار نهارها ، وبدأ قلبي يتنفس معها كأنهُ ليس منها قطعة صغرى ، بل طبيعةً أخرى ، ولله ما أكبر قلباً يسع الحب من قُبلة اللقاء الى ذكراها ، ومن حياة الصبي الاولى ما يكون من الجنة أو النار[٢] فى أُخراها . ان هذا الهوى القلب الذى ترى فيه الطبيعة كتابَ دينها المقدس . فاذا لحق العاشق الذى يحمله بربه تناولتهُ وهي جاثية كأنها فى صلاة الحزن ثم قبلته متلهفة ثم قلّبته متخشعة ثم أودعته فى مكتبة الابد لانهُ تاريخ قلب آخر[٣] بل هو جزء من الموسوعات الكبرى التي يدوّن فيها الدهر تاريخ النفس

(١) كناية عن الليل (٢) الوصل او الهجر (٣) تاريخ القلب الذى أحبه

الانسانية على ترتيب بعينه تعلَّم الناس منهُ أن يبدؤا لغاتهم جميعاً بحرف (الألف) لا لأَنهُ من اقصى الحلق . . . بل لانهُ من أقصى القلب ، بل لأَنهُ من أقصى التاريخ ، بل لأَنهُ أول اسم (آدم) ذلك العَلَم الأَول فى تاريخ الحب .

والآن وقد رقَّت صفحةُ السماء رقةَ المنديل ، أبانَهُ قُبَلُ العاشق فى بِعاد طويل ، أوهجر غير جميل ، وتلألأَت النجوم كالابتسام الحائر على شفتي الحسناء البخيلةَ حيرة القطرة من الندى إِذ تلمع فى نور الضحى بين ورقتين من الورد . وأقبل الفضاء يشرق من أحد جوانبهِ كالقلب الحزين حين ينبع فيهِ الأَمل . ومرَّت النَسَماتُ بِليلةً كأَنها قِطَعٌ رقيقة تناثرت فى الهواء من غمامة ممزقة ، وأقبلت كل نفس شجية[1] ترسل آمالها الى نفس اخرى كأَن الآمال بينهما أحلام اليقظة . ونظر الحزينُ فى نفسهِ . والعاشقُ فى قلبهِ . ونام قومٌ قد خَلَتْ جنوبهم فليس لهم نفوس ولا

---

(١) حزينة

قلوب ، ولَبِس الكونُ تاجه العظيم فأشرق عليه القمر .

والآنَ وقد طلعتَ أيها القمر لتملأ الدنيا أحلاماً وتُشْرِف على الارض كأنك روح النهار الميّت ما ينفكُّ يتلمَّس جوانب السماء حتى يجد منها مَنْفذاً فيغيب . فهَلُمَّ أبثُّك نجوايَ أيها الرُوح المعذَّب وأطرح من أشعتك على قلبي لعلي أتبيَّن منبع الدمعة التي فيه فأنزفها . إن روحي لاتزال في مذهب الحسن كأنها تُجهِش للبكاء [1] مادامت هذه الدمعة فيه تَجِيشُ وتبتدر . ولكن اذا أنا سفحتها وتعلقت بأشعتك الطويلة المسترسلة كأنها معنى غزَلي يحمله النظر الفاتر ، فلا تُلقها على الارض أيها القمر فان الارض لاتقدّس البكاء ، وكل دموع الناس لاتبُلُّ ظمأ النسيان ولو انحدرت كالسيل يدفع بعضها بعضاً

ارأيت أيها القمر هذا النهر الصافي الذي يجري كأنَّهُ دموع السحر من أجفانٍ ينفثُ فيها هارُوت ومارُوت .

---

(١) تهيأ للبكاء

ويطّرد بجملته كأنه قطعة من السماء هاربة فى الأرض .
وهل تُبصر في شاطئهِ تلك الشجرة الناضرة الممتلئة
بالاوراق كأنها مكتبة يتصفّحها الهواء ؛ هذه هي مثال
الفلسفة الطبيعية فكل حكيم لاينبت على شاطىء الدموع
الطاهرة فهو فيلسوف جافٌ كأنهُ مصنوع من جلود
الكتب . وما دمعتى الاَّ النهر الذى نبتٌ فى شاطئهِ وهى
أطهر شيء وأصفاه لأنها مخلوقة من ثلاثة عناصر تقابل
العناصر السماوية . من الحب الذى يقابل عنصر النار ومن اللّين
الذى يقابل عنصر الهواء ومن البكاء الذي يقابل عنصر الماء .

ليس كل من عصَر عينيه فقد بكى . ان البكاء لأشرف
من ذلك . وكما يكون الضحك احياناً حركة فى الافواه
تبعثها العادة كحركة الحواس الغليظة فيضحك المرء وقلبه
صامت متُعبّس ، كذلك يكون من البكاء ماهو حلُمُ
الاسى . لأَن فى العين حاسةً لابد من تمرينها أحيانا تسمى
حاسة الدموع .

وما إن لقيت باكياً الا رأيت وجهه مقبلا عليّ كأنهُ يسألني . تُرى من أين يُذبَح الانسان اذا كانت دموعه هى دماء روحه ؟ ذلك لان الدموع لم تعُد على طبيعتها دموعاً بل هي علامات الألم أو السخط . الألم من المخلوق والسخط على الخالق فهي ألفاظ من لغة العجز قد تكون أفصحَ منها فى الأداء كلماتُ السِّفاه والغيظ والحنق وما اليها .

ولكنّ الباكيَ بها لا يجد من قوة الجراءة ما يرفع صوته من حفرة الحلق التى لا تمتلئ مع أن نفس الحر تئِدُ [1] فيها كل يوم الفاظاً كثيرة من عبارات الذل والتمليق فلا ينطق بها ، وتئد فيها نفس الذليل كل الفاظ الإباء والأنَفَة فلا ينطق بواحدة منها . وذلك لعجز الباكي ثم لضعف إحساسه بالذل السياسى أو لضعف قلبه بالتقوى التاريخية فيرفع صوت روحه والروح تتكلم من العين بهذه المعانى السائلة التى نسميها الدموع .

---

(١) الوأد الدفن على الحياة ومنه وأد البنات فى الجاهلية

أريد أن أبكي بكائي الطبيعي أيها القمر لأنه يخيّل إليّ أن حقائق كثيرة تغتسل بدموعي. وانى لا أكون في حاجة الى البكاء الا حين تكون هي في حاجة الى الدموع.

ولقد شعرت مراراً بحركة عقلي في تصفُّح الاسفار، واضطراب نفسي في متاحف الآثار. واختلاج قلبي في معابد الطبيعة التي قامت الجبال في بنائها لأنها أحجار، فما أفدت من كل ذلك ما أفدته من دمعة تفور في صَبيبها كأنها رُوح عاشق يطاردها الموت بين يدي حبيبها. فانفى هذه الدمعة ثواب كل آلامى، ويقظة كل الحقائق من احلامى.

ومازلت حائراً في امر مُشتبهٍ لا أُصيب الوجهَ فيهِ فلا أدري اذا كانت هذه الدموع المتساقطة تنقضُّ من بناء الحياة لينهدّ، أو هي تضاف اليه ليشتدّ. فانى أرى أقواماً يحيَوْن بالدموع وآخرين يموتون بها. ولعل عين الانسان ملئت بالدموع من أصل الفطرة لتكون منها خنادقُ مستفيضة حول الروح فلا يقتحمها الفكر ولا

يرى أبداً إلاَّ ظـاهرها ، ولولا ذلك ما بقيت الروح من أمر الله . أوَلسنا نرى الذين يبكون كثيراً من الحكماء والجهال على السواء يؤملون ان يدركوا من اسرار الروح كثيراً اذ يرون تلك الخنادق قد أخذت تمجُّ مافيها فكأنهم بالماء قد غيض ، وكأنهم بالامر قد قُضِي ؟

ولـكن الانسان ليس إله نفسه فهو يبكى صابراً ويصبر باكياً ومتى انكشفت أرض الخنـادق الروحية ظهرت فيها حفرة القبر وكانت آخر دمعة تجفُّ منها هى دمعة الموت .

بَيْدَ أن الحقائق التى تهيِّء للبائسين ذلك الامل بكثرة ماتَفيض أعينهـم من الدمع هى فى رأى الناس علم وفلسفة لان الجهل فى الانسان لاحدَّ له فكل ما ظفر بهِ عده حداً علميًّا . أوَلاَ ترى ان أجمـل مافى الديانات والشرائع قد تحول الى حجارة البِيَع والصوامع والمساجد والأضرحة والحُبُوس وكثير من مثلها حتى صارت هذه الأبنية تفهم

الناس من ضروب المعانى أكثر مما تفهمهم الكتب السماوية في الارض والارضية فى السماء ؟ (١)

مالى ولك أيها القمر لا أحب أن أفيض عليك دمعي فقد ترى فيها أشعة كثيرة من الوان الأسرار المختلفة . بل أنا أراها في قلبي وقد أشتمل بها الخيال الحزين . خيال هذا الأمل الذى يسميه الناس (الحب) وتسميه الطبيعة (الحياة المعذبة) لان الناس قد مضَوْا على أن لا يعرفوا الحقيقة الا بأوصافها ولا يعرفوا من أوصافها الاما يتعرَّف اليها من ظاهرها الجميل . أما باطن الحقيقة الذى يحتوي السرَّ المحزن فهذا يعرفهُ من يفهم لغة الطبيعة وما لغتها الاَّ أفعالها .

وأنت فاذا أردت ان تدرس علم البلاغة من هذه اللغة الطبيعية فادرس المصائب والآلام والأحزان . انها هى أقانيم

---

(١) الكتب السماوية كتب الاديان والارضية كتب القوانين ونحوها

البلاغة الثلاثة : المعانى والبيانُ والبديع . وانك ان درستها وتدبرتَ شواهدها الصحيحة التي لم يصنعها (١) رُواتها ولم يحيثوا فيها بمُنكَر القول وزُورِه أصبحتَ أفصح من ينطق عنها في هؤلاء البُكْم الذينَ يقرأ احدهم صفحة الزهر بعينين فى أنفهِ (٢) . . . ولا يستحى الغبيّ أن يقول لك ان في الزهرة معنى جميلاً كأن في أنفه عقلا من العقول العشرة . . . . (٣)

فمن أحبَّ ورأى حبيبته من فرط إجلاله إياها كأنَّها خيال مَلك يتمثّل له في حُلُم من أحلام الجنه . ورأى فى عينيها صفاء الشريعة السماوية . وفى خدّيها توقدَ

---

(١) لم يختلقوها (٢) منخريه (٣) هى من مزاعم ارسطو فى فلسفته فزعم ان المادة استفادت وجودها من الواجب الوجود وان واسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال وهذا العقل هو العاشر والتسعة قبله يرقى بعضها الى بعض الى العقل الاول وهو اول صادر عن الواجب

الفكر الإلهى العظيم .[1] وعلى شفتيها احمرار الشفق الذى يخيِّل للعاشقِ دائماً ان شمس روحه تكاد تُمسى . ورآها فى جملة الجمال تمثال الفنّ الإلهى الخالد الذى يُدْرَسَ بالفكر والتأمل لا بالحسّ والتلمّس فأطاعها ارادتُه واستند اليها كأَنها قوّته وعاش بها كأَنها روحه ، فذلك هو الذى يشعر بحقيقة الحب ويفهم معناه السماوى وهو الذى يقول لك صادقاً مَصْدوقاً : إن كل لفظة من لغة الطبيعة في تفسير معنى الحب كأَنها صَلْصلة[2] المَلك الذى يفجأُ الأَنبياء بالوحى فى أول العهد بالرسالة .

ليس كل ما يعجبك يرضيك ولكن كل مايرضيك يعجبك فالجمال الوصفي الذى يقاس بالنظر ويخرج منه الفكر بنسبة هندسية جمالٌ صحيح وحَرِيٌّ أن يكون معجباً . ولكنه على كل حال بناءٌ جسمى كالقصر المَشِيد الذى

---

(١) توصف افكار النوابغ بالتوقد لان الفكر يستوقد المادة الفسفورية فى الدماغ (٢) الصلصلة صوت السلاح ونحوه كالجرس

يعجبْ الفقيرَ المُعْدِمِ فيتمناه فان هو صار له خالياً لم يُرضِه لأنَّه لا يلتحف سقوفَه المموَّهة . ولا يفترش أرضه الموطأةِ ولا يلبس جدرانه الموشَّاة ولا يقتات من هوائهِ الطلق . أما الجمال الذى يُرضى فهو الذى يَشفُّ عن صورة روحك بغير ما يخيلها لك ماء الحياة العكر — هذا الذى لا يشفُّ عن شيء ولا يزال يضطرب فيجعل شبَحك في اختلاطه كأشباح البهائم يُخْلَق كلٌّ منها خَلْقاً جديداً كلما ضربت البهائم فى الماء بأرجلها . فترى من ذلك الجمال كأَن ملكا هبط عليك من السماء وفى يده مرآة فنظرتَ ذا صورتك بعينها ولكنها فى يد ملَك .

وقليلٌ أن يجد الناس مثالا من ذلك الجمال فكثير منهم يجحدونه ويرونه ضرباً من الوصف الشعرى الذى يظهر فى خلقهِ وابرازه مقدارُ ما فى الشعراء من روح الله . وانما يجحد مثالَ الجمال الكامل من لا يستطيع أن يكون مثال الحب الكامل . واذا كانت المرآة قد علاها

الصدأ فكيف يعلوها الوجه الجميل . وكيف تخلُصُ الى روحك من طين هذه الكأس الزجاجية (المرآة الصدئة) نشوةُ الجمال ولو سكبتْ فيها حُور الجنة كل ما فى خدودها ؟

ولقد قيل إن قوماً من العرب ترحّلوا عن بعض منازلهم فكان من أنْسائهم [1] قطعة مرآة صقيلة كأنها وجه المليحة التى نسيتها فرت بها ضبعٌ كأشأم ما خلق الله قبحَ طلعة وجهامةَ منظرحتى كأن في وجهها تاريخَ الجيَف التي اغتذت بها !!! فوقفت عليها تُعجَب من إشراقها وسنائها وما كادت تنظر فيها حتى راعها وجهها ولا عهد لها برؤيته من قبل لأَن الله رحيم ومن رحمته أن لا تعرف الوحوش أنها وحوش وأن لا تجد أسباب هذه المعرفة . فانقبضت

(١) الانساء ماينساه القوم المترحلون من هنات المتاع وكان العرب اذا تحملوه قالو انظروا أنساءكم يريدون هذا .

الضبع وزوت وجهها وقالت : مِنْ شَرّ ما اطّرحك أهلُكِ أيها المرآة ...[1]

فجمال هذه الضبع الذى جحدته المرآة كما يجحد الكافر رحمة الله . وحسنها الذى أحالته المرآة قبحاً كما يُحيل الطبع اللئيم كل حسنة تتصل به الى سيّئة . هما أشبه شيء بالعقل والقلب فى الحب الأخرق الذى يحب بحواسه فتجوع روحه وتشبع وتعتلّ بالتُّخمة أيضاً[2] وكم فى الناس من مثل هذه الضبع وكم فى الحسان من مثل تلك المرآة

أُحِسُّ وما أحسب الاحساس الا نكتة صافية فى القلب تقابل نكتة العين التي يكون بها البصر فكل ما انطبع في هذه انطبع فى تلك لكي تكون الروح بين مرآتين فيسهل عليها أن تدرس الحقيقة بالمقابلة فاذا نزل الشاعر

---

(١) مما وضعه العامة ان عجوزا فانية نظرت في المرآة فراعها وجهها فقالت ان اهل هذا الزمان لا يحسنون صناعة المرآة كما كان يحسن اهل زمننا... (٢) التخمه كظة البطن وامتلاؤه

الدقيقُ الحسِّ بروضة غناء نَضرة أحس بقلبه كأنما يخضرُّ بعد يُبْس . واذا أطلَّ فى الغدير الصافى أحسَّ معنى الماء ينسابُ في عروقه . واذا نظر الى وجه الجميلة الحسناء فلماذا لا يحس أن قلبه امتلأ جمالاً حتى كأنه لا يعشق منها الا شيئاً فى داخلَةِ نفسه ؟

بلى وأكثر من ذلك فان الشاعر ليكتب عمن يحبها فيرى كأنَّه ينفخ فى كل كلمة معنى من الحياة لانهُ لا يكتب كلاماً بل يخط صورة قلبه . والعواطف الحية تبقى حيةً ولو كانت مرسومة لانها لاتجتمع فى شكلها الذى تنتهى اليه الاَّ بعد أن تمر في أدوار الحياة فتألفها الارواح وتصير كاللفظ المأنوس ما هو الاَّ أن يُذكَرَ حتى ترى معناه للذهن ماثلا

بلى ولقد يُخيَّلَ الىَّ أيها القمر الجميل حين أكتب عمن أهواها انك لفظ فى ألفاظى تطلع من المداد . فاذا قلت « وجهها » فهل تظن هذا اللفظ الذى هو جملةُ الجمال الا قرأً

فى الكلام . واذاقلت « ابتسامها » فهل ترى هذه الحروف
الــتى تتنفس على القلب الا أشعة الفجر النـدى وإذا قلت
« هى » فهل ترى مِنْ هى الا « ضمير » الطبيعة التى تأخذ
عنها الانسانيه دينها ؟

آه لو تعلم أيها القمر مَنْ « هى » ؟

الفصل الثاني

وآه إن فى « ضمير الطبيعة »[1] وفى المعنى المستتر فى الهاء والياء لسراً من الحب تتجدّد في الناس معانيه المُعْضِلة كأن فيه حياةً غريبة تغذوه بتلك المعانى فهو فى علم الروح كالروح نفسها فى علم الإنسان .

واذا تناولته نفس المحب وطفِقَتْ تعالجه رأيت المحب ذاهلاً كأنه حي بلا نفس . وآنستَ من نظره عمقاً بعيد الغَوْر كأنه الطريق الذى مرت منه نفسه . فهل يمكن أن يكون فى يَقَظَة هذا الانسان نوعٌ من الحُلُم ؟

لقد غفلتُ الآن عن نفسى هُنَيْهَةً أو هى غفلتْ عني فما انبهى الا اضطرابٌ ينتفض له قلبي كأن حواسى كلها نهضت تستقبل روحي وقد انقلبت من سفر طويل تحف بها الحاشية العريضة من الأفكار والآمال .

---

(١) اى هي المشار اليها فى خاتمة الفصل الاول ولفظ هى من الضمائر

فتلقتهن وجعلت تطرف كل حاسة بتحفة نفيسة من هداياها وهن يتناهبنها وأنا فى ذلك كأنى مقسم الى حزب أو مجتمع من حزب ، وما لبث أن ردنى الى وحدتى النفسية دبيب كنجوى النسيم للزهر وليس بها ، وكصوت القبلة المختلسة على حياء وليس بها . وكأنه آهة رقيقة انبعثت من شفتى حورية سماوية فأرسلتها الملائكة الى الأرض لانها دار الفتنة فما زالت على وجهها (١) تتصفح كل وردة وكل خد كأنه من الوردة وكل شفة كأنها من الخد حتى رأت (ليلى) وهى تبتسم فاختبأت فى شفتيها وما تشك من طيبهما انها رجعت الى صاحبتها في الجنة .

سرى هذا الحفيف قليلا قليلا فلا والله ما منه نشوة الخمر ولا نفثة السحر ولا رجفة الطرب . ثم سرى قليلا قليلا فما هو الا أن أصاب قلبي حتى انتفضت كأن قبلة حارة انطبعت عليه ومسته بشفتيها الرقيقتين . فكانت هذه الطرفة هدية

---

(١) اي زاهية

الروح الى القلب .

وما أسرع ما اجتمعت إشتاتُ الحياة بعد أن تَوَزّعَتْها الآمال لتنغمس فى بقايا تلك القُبلة العَذْبة التى صبها الهوى على القلب صباً كما تتناول السعادة قلب طفل حزين فتغسله بابتسامة من أمه . وسرعانَ ما انتبهتُ بعد ذلك فاذا أنا مستيقظ أو كالمستيقظ .

لا أدرى أيها القمر كم هى تلك الفَتْرة من حساب الزمن فانى لم أنظر فى ساعتي او بالحري لم أنظر فى وجه التاريخ . فقد أُبغض الساعة لانها ميزان يبيّن مقدار السم البطىء الذي ينفثه فى الحياة ذَنَب (عقربها) بتلك الحُمَةِ[1] المسدّدة الى الساعات والدقائق .

ودَعِ الناس يزِنون بها الحياة لا الموت فان كل شيء في يد الانسان أصبح لا يَخرُجُ منها الا بثمن ومقدار . ولو عدّ الله عليهم حَبَّ الغمام أو حَبَّ الارض كما يَعُدُّ بعضُهم على

---

(١) الحمة ابرة ذنب العقرب

بعض لهلكوا جميعا كما يهلكُ اليومَ بعضهم بعضا . ولو
تدبرت اختلاف أثمان الوقت فى هذه الاجسام التي تشبه
الحوانيت فيما تتعارض من تجارة الحياة لقضيتَ عجباً من
الانسان فربَّ دقيقةٍ واحدة من حياة رجل تُبذَل فى
ثمنها حياةٌ بتمامها من رجل أو رجال .

ورب يوم يُبيعُه رجل (١) فلا يُساوَمُ عليه بأكثر
من نظرة ازدراء ويومٍ آخر تُبذَل فيه كل أزمنة التاريخ
المجهولة وكثيرٌ من أيامه المعدودة ليملأ بعَظَمته ذاكرة
الزمن الخالية .

ولى صديق فيلسوف يضحك عاليا ملء فمه حتى ليخيل
الي أنه ولد في يوم رعد قاصف . . . وذلك كلما حَدَّث عن صاحب
له واعده يوماً أن يوافيه في ساعة معينة ثم وافاه الفيلسوف
وقد مرت الساعة ولحقت بها أختها . فقال صاحبه متململاً

(١) يقال أباعه اذا عرضه للبيع وباعه اذا وقعت الصفقة
وفرغ منه

أو ليس . . . فقطع عليه صاحبنا ما وراء السين وقال دعني من اسم هذا الفعل الناقص وخبره . حينما يحرص الزمن على أن لا يخطىء فى حسابنا نحرص على أن لا نخطيء فى حسابه .

وأنا لا أقول بإغفال الوقت وارساله كأنفاس المختنق لا تذهب من الحياة ولكن تذهب بها ! فان هذا قد كان فى عهد آبائنا وآباء التاريخ حين كان الليلُ ساعةً فلكيةً للطبيعة وكانت النجوم أرقامها ثم كانت دقاتُها صياحَ ديك عند جماعة ونهيقَ حمار عند آخرين ...

وإنما أريد أن لا يحاسب أحدنا ربَّه بالدقيقة فاذا سبَّب له من وقته طرباً أو ساق اليه فرصةَ حظ من السعادة فليطربْ ولينتهزْ من فورِه ولساعته وليأخذْ ما آتاه بقوة . فان الدقيقة الواحدة التى يتفلسف فيها وقتئذ ربما كانت هى الطريقَ الذى تمر منه الفرصة الى ماوراء الزمان فتلحق بالبعيدِ البعيدِ من الأَبد حيث لا يتعلَّق بها شيء .

من أوهام ذلك الفيلسوف المفكّر ولو خرجتْ روحه تشتدُّ وراءها عَدْوًا ...

فاذا اتفقتْ لي هُنَيْهَة كالتي انتهت الآن بهدية الروح الى القلب[1] فقلّما يعنيني مقدارها بل أنا أحسبها كما أشاء ولا أذكرها الا ذِكْرَةَ الهَرِم يومَ ميلاده بعد ان أسندَ فى حدود المئة . فأعتبر مقدارها بسنة وبمئة سنة . ماشئتُ من قليل وما شئتُ من كثير لانها أصبحت لى لا للتاريخ ولا للساعة . وقد تكون لى ذكرى الحياة كلّها فلا أُسْلِمها فى يد الغيب الامع آخر نَفَس من أنفاسى . ومع ذلك فانى أحرص على أن أجعلها كأنها نفسٌ من حياة الآخرة خرج فى الحياة الدنيا فتظلّ روحى واقفة على الجسم لحظة وهى قد فارقتــه حتى يبرد أثر القبلة التى انطبعت على القلب ويبرد الموت على جنبى[2] وحينئذ لا يبقى لها فى الجسم شىء

(١) اى القبلة المذكورة فى صفحة ٢٩

(٢) يقال برد الموت على جنبه اذا انقضت هنيهة لموته

من الحب ولا أثرَ زفرةٍ من زفراته فتصعد متباطئة ..

لست أشكُّ ان لليقظة أحلاماً والا فما شأن الذاكرة إذَن . وهل هى الا بيت الأحلام ؛

ولكن هذا البيت لا تقام فيه الحفلات الاَّ اثناء الليل فيموج بأهله حتي مايرى العقل الا أشباحاً متفرقة كأنها ماصفَح عنه البِلَى [1] من سطور كتاب قديم .

ومَن الذى يُنكر ان استبداد الملوك الطغاة وما اليه من استرقاق الشعوب وتَعبُّدِ الضعفاء وظلم المساكين إنما هى أحلام مزعجةٌ من أحلام الانسانية المستيقظة ؛

إنك لتشترى الذهب بالفِضَّة وتستبدلُ الفضةَ من الذهب . ولكن البيضاء ينبغى أن تكثُر في حالتيها حتى تساوي فى القيمة ما تشتريه بها أو ما تشتريها به من ذلك المعْدن النفيس . فأذا نقصت شيئاً قليلاً ولو درهماً بقى الذهب سيِّداً وذهب النقص بالتكافؤ بين الرتبتين .

---

(١) ماتركه القدم

انظر أترى ثَمَّتَ شعباً مُسْتَعْبَداً يجتمع كما تتراكم الأنقاض ويتفرق كما تَتَبدَّد وليس منه في الاجماع والتفرق الاصورتان للخراب كالبُومة والبُومـة فى التشاؤم ؟ انك لتنظر الشعب الذى يحلم وهو مستيقظ . ألا تراه يعمل على السُّخْرة ويطيع بالارادة أو بالوهم الذى صار له كالارادة . ويشك في أنه يخاف من المستبد أو يخاف من أن يشك فيه ويرجو على قوَّته ما يرجوه الأَجير أن يملك يدَه ساعةً ليتناول بها لُقَيماتٍ يُقِمْنَ صلْبه وأن ينتهي عملُ يومه ليُوقِن أنه إنسان كالناس له يدٌ يملـكها ؟

هذا دأب الاستبداد ودأب الشعب الضعيف الذى ابتُلِيَ بالنقص عن مكافأة المستبد به ومساواته . وكثيراً مالا يكون هـذا النقصُ فيه الا بمقدار درهم واحـد من الفضة التي نزلتْ عن مقدار الذهب .

ولـكن أين هـذا الدرهم المتمم ؟ درهم واحد من الشعب يكون بالشعب كله ويجعله مالـكاً بعد أن كان مملوكاً

وحاكما بعد ان كان محكوماً. ويُخرجه فى التاريخ من رتبة الى رتبة.

هذا الدرهم هو الذي يبقى في يد القَدَرحتى يجيء يومُ الحساب الذى وُعِدتْ به الحريّة المظلومة للانتصاف من ظالميها فيُعطيهُ الله للشعب ولا يكون الارجلاً. ولكنه رجلٌ الهي.

أفتدري من هو هذا الرجلُ الالهى؛ هو الذى لاتعرفه الحياةولا يعرفه الموتفلايذلُّ لأحدهما، تتبرّج له الحياةُ فلا تغرُّه، ويتجهّم له الموت فلا يضرُّه، ويُبتلَى بكل ما يسوءُ ويسرُّ فلا يسوءه ولا يسرُّه.

هو رجل روحُه فى كفه[1] — وهى العلامةالالٰهية فيه — فما إن يزال يَثِبُ بها من كل قبر يُحتفَرله ولا يسقط

(١) تحتمل هذه العبارة ضدين من المعنى : أن الرجل معرض للموت في كل وقت لان روحه على أعين الحادثات وأنه لايموت كذلك لان روحه قد تركت له وهو المقصود هنا

أبداً . وكل رجل إلهي لا يخطو الا فوق القبور حتى إن تاجَ الملكِ لينكشف عن رأس صاحب الجلالة اذا رآه ويهوي الى الارض عساه يكون لتلك الأَنَفَة قبراً ذهباً . فان هذا الرجل الحقّ لايجئ الا عند ما تقضي السماء على الارض بحكم من أحكامها . فيخلق الله بين جنبيه قلباً هو المعنى المتجسم من ذلك الحكم .

وتسبق مجيئه أعاصيرُ ومِحَنٌ تهبُّ على الارض فتقيم الدنيا قيامة لا لالتواء الكون ولا لظلم الناس ولكن لتمهد طريق الإعصار الساكِن الذى يولَد هادئاً منطوياً على حقيقته انطواء القنبلة .

وانه ليخيَّل اليَّ أن هذه الأَعاصير لا تُرسَلُ على الأَرض الا لغرض واحد هو من أمر الله . وذلك أن تسفِيَ من كل جهة فى الارض هَبْوَةً من ترابها ، فتجمع منه ملائكةُ الغضب كل ذَرَّةٍ قد كُتب لها فى الأَزَل أن تكون فى حفرة هذا البطل فيَنْتَزِعَ قبره من الارض حتى لاموتَ

له ، ويمينَ اللهِ لو فُتحت له القبورُ كلها لما سقط فى واحد منها بل يظل يخوض الموتَ خوضاً وكأنه يغسل رجليه فى نبعٍ بارد . ولو شبّت حوله جوانبُ الارض سعيراً يتلظى لما عدت أن تكون ناراً يُنضج بها غذاء تاريخه الثرّه .

ويُسلَب ذوو العقول عقولَهم حتى ينفذ قضاء الله فتى نَفَذَ حكم السماء وتمّت كلمة ربك واستغفرت الارض من سيئتها التى نزل بها العقاب لأجلها ، أحسّ ذلك الرجل انه انسان وأنه بدأ يتعرّف الحياةَ واستشعر ظلاً يمر على نفسه وهو لا يعرف أنه ترابُ قبره الذى يتساقط الى الارض شيئاً فشيئاً حتى يجتمع . ثم لا يكون الا ريثَ يتهيأ منه مقدارٌ يواريه حتى يتبيّنه الموتُ إذ يغدو على الارض يتفقّد الحُفَرَ الخاليةَ ويجمع منها الاوراق الذابلة التى نثرها القضاء من شجرة الأعمار .

هذا هو الرجلُ الالهى الذى لا ينثنى لأنه الحقُّ ولا ينحرف لأنه العدلُ ولا يخاف لأنه البأسُ ولا يضعف لأنه

القوة ولا يَحيف لأنه الإنصاف . ولو تعلَّق به أهل الارض جميعاً لمشى بهم مطمئناً لانه في نفسه كقطعة من نظام السماء الذي يجذب الارضَ في فضائها

وهذا هو الرجل الذى يتعرَّفُ به النَّاسُ معانىَ الاصطلاحات النفسية القوية كالشهامة والنَّجدة والصدق والإخلاص والإيثار وما اليها من سائر المُفْردات التي يتألف منها مُعجَمُ الفضيلة .

وهو في كل ذلك كأنه قاعدة من قواعد العلوم تُعطيك المَثَل الذى تريده لأنها هى ذلك المثَل لا لأنها تعطى وتمنع .

فلو أُريد ذلك الرجل على الخيانة واللؤم والجبن والتملق والمداهنة ونحوها مما يكون فى المتشبهين به لزادَ وفاءا وكرماً وإقداما وأَنَفَةً واباءا كما يزيد طيبُ العود باحراقه

أرأيتَ إذن مقدار الدرهم الذى ينقص الشعب؟ إنَّ أكبر رجال التاريخ لا يَزِنُ أكثر من درهم واحد فى ميزان الله .

ومن نكد الدنيا أنك لا تزال ترى المصلحين حيث ترى نفسك لا تفقد منهم فى مكان ثم لا يزيد الأمر معهم الا فساداً لانهم مصلحون بالتشبه والتقليد أو بقوة الارادة أو بارادة القوة . وان احدهم ليريد أن يكون مُصلحاً فيكونه ثم يبتغى ان يعمل عمل المصلحين فلا يبرح يبحث عن الفساد حتى يَجده أو يوُجده . ثم يتخذ من الناس ما يتخذ الأطباء فى تجاريبهم من العقاقير فيسحق طائفةً ويمزج طائفةً ويذيب طائفة ، كل هذا والشعب يقيه بنفسه من التلوث بالقذَر كالبذلة في نِطاق المتبذِّل ، وهو دائبٌ على أمره حتى تُسفِر التجربةُ من مزيج ينظر فيه فيعرف من النظرة الاولى أنه عرَقُ الخيبة الذى تفصَّدت به من طول ما أجهدها في عمله . . .

خذ أحد القوانين مثلاً واقرأه ثم تدبَّره على عينك ثم أرسله من يدك وأرسل الفاظه من روحك فانها ستنقلب رجالاً يتسللون فأتبِعهم قلبَك وانظر أفعالهم وتغلغَلْ

ما استطعتَ في مكامن النّيات وأبْعِدْ الى مطارح الظنون وكن منهم فِطْنةً وحِذاراً كانكَ تستنبيء أخبارَ كل نفس من مَلَكيْها (١) . فاذا وعيتَ وتبيَّنتَ واستبرأت كلَّ ماتشك فيه الى مُنْقَطَعِ اليقينِ فامسخهم ألفاظاً كما كانوا واجهد جهدكَ في فهمهم بعدُ فانك ستعْجَب من لغة قانونية وُضعت لتُفْهَمَ كما تثبت في أذهان واضعيها لا كما تتحول في أذهان الناس . وسترى ذلك القانونَ نفسه كأنه كتاب من كتب النحاة المتأخرين قلّما تَعرض فيها قاعدةٌ الا كان أساسها « زيداً وعمراً وبكراً وخالداً . . . » فيدخل هؤلاء المساكينُ من كل باب ليطبقّوا على القاعدة لا لكي تُطبقَ عليهم ... ولا يكون مَاْتى ذلك الا من الفهم الميت في معاني الإصلاح فان المعانيَ نفسها تموت معه ويبقى كل لفظ كأنه

---

(١) هما ملك اليمين وملك اليسار اللذان يكتبان الحسنات والسيئات

قبر يتفاءل له بالرحمة وتجري عليه الدموع وتنشق المرارات وهو لايجيب الناس على كل ذلك الا بطلب ميتٍ جديد ٠

لا مفرّ للخلق من العبودية وأنّى لهم المفرّ والسماء فوقهم والشرائع تحت السماء والقوانين تحت الشرائع والرذائل تحت القوانين والوحشية تحت الرذائل؟ فويلٌ للمستضعفين الذين يفرّون من كل فرْجة بين المخالب والأنياب وفي أرجلهم القيود الثقيلة . وويلٌ للانسان الذي لا يكتفي بالله في سمائه حتى يستعبد لصفاته في أهل الأرض ٠ فالجبروت في الملوك والكبرياء في الحكام والتقديس في القوانين عادلةً وظالمةً والعزّة في القوة ٠ وماذا بقي لله ويحك؟

أيها القمر الذى يشرق من بعيد كأنه وجه الحرية مهما بَعد فآماله قريبة ساطعة على كل نفس حقيرة . أما إنى لا أرى العبوديةَ الا لله وحده فإنما هى فكر الروح فى مبدئها واتصالها به وان كان فى الارض عبودية شريفة فهى للحب

وحده وانما هي فكره القلب في مَرْجِعه واتصالُه به . وكما يَسْتَعْبِدُ الاعمى لعُكاَّزته لانه يرى فيها عنصراً من النظر ، والشيخُ الهَرِمُ لعصاهُ لانه يرى فيها عنصراً من الشباب ، والطفلُ الصغير للُعبته لانه يرى فيها عنصراً من العقل ، كذلك يستعبد عاشق الجمال للجمال لانه يرى فيه لروحه وقلبه مَنْظَراً وشباباً وعقلا فيُبصر ويقوى ويعقل اذا عَمِيَ غيره وضَعُف وخَرِف ، ويعلم حينئذ بنظرة الفكر القوية العاقلة أن العبودية للحب الصحيح هى مبدء العبودية الصحيحة لله .

الفصل الثالث

ولَعَمْرى أيها القمرُ إنى لأشكوا اليك بَثّى وحزْنى وأُناجيك بأحلام النفس الانسانية وانك لتُجيبنى الجوابَ الصامتَ البليغَ فتطرحُ أشعتك في قلبي آخذُ من بعضها قولاً وأرجعُ اليك بعضَها قولاً كالعاشق يرى فى الحاظ حبيبته بالنظرة الواحدة مافى نفسه ومافى نفسها جميعاً .

ولقد أرى لك فى جانبٍ من قلبي شعاعاً غريباً قد استَبْهَمَ عليّ فلست أعلمه وكأنه يذهب من أبعد سَمْتٍ فى السماء الى أعمق غوْر فى القلب وانما انحدر في اشعتك ليمتزج بشيء من الغزَل يستأذنُ به على هذا القلب الذي فيه من الحب أكثرُ مما فيك من الجمال .

وما أدري ما أمرُ ذلك الشعاع ؛ غير أنى أُحس أنهُ ينير فى حَلَك الظلمة الخالدة التي فَصلَت بينى وبين أيامٍ

ولُدتْ فيها الدنيا معي [1] فأراه يقابل نفسي بمعانٍ رقيقة كأنها أرواح تلك الايام الماضية. وكأنه اتّسقَ أسطراً نورانية أقرأ بها فصلاً من تاريخ الطفولة الذى تضحك كلماته لانها من لغة الضحك.

تلك اللغةُ الخاصة بالأطفال والتى يضحك منها الرجال أحياناً اذا استمعوا لها لان فى أنفسهم بقيةً من أثرها.

تلك اللغةُ الموسيقية التي تَفيضُ ألحاناً حتى فى الحزن. والتي تُوَزِّع أنغامها على كل شيء تصادفه كأن كل شيء ينقلب في يد الطفل أوتاراً مَرِنَةً ولو كان العصا التى يُضْرَبُ بها...

بل تلك اللغةُ التي يُوفَّق بعضُ القلوب السعيدة الى الاحتفاظ بشيء منها على الكبرَ فتكون فيه ينبوعاً للفلسفة الحقيقية يشرب منه الحُبُّ الظمآن وتسترَوِح إليه الحياةُ المجهودة التي ما تكاد تتنفس وتَبْـتَرِد عنده الاحزانُ الملتهبة

(١) ايام الطفولة اذ كل مولود يستقبل الدنيا جديدة غضة فلو وصفها بلغته لقال انها ولدت معه فكلاها عند صاحبه جديد

وتصغر لديه كل المصائب فتخرج عن طبيعتها الى طبيعته حتى لا يستحيل بها دموعاً حارة وهو فى الانسان بقية الرِّيِّ من ماء الجنة قبل أن يخرج منها ويوم كان لا يَظْمأُ فيها ولا يَضْحَى .

واشَدَّ ما اجتهد العلماء والفلاسفة فى تعريف السعادة ولكنهم عرفوها بتنكيرها إذ ألبسوها ألفاظاً من لغة البُؤْس كانت لها كثياب الحِداد التي هي أكفان الحيّ المتصلِ بالموت او الميّت الذي لم يمت . فاذا أردت السعادة من تعريفاتهم وابتغيتها من أوصافهم فانك تكون سعيداً جداً بل أسعدَ الناس كافةً لان كل واحد منهم يتوهمك سعيداً متى لبست تعريفه وكنت على حدّه فتسعد بعشرين أو ثلاثين سعادةً متباينة ولا ضَيْرَ أن تبقى بإزاء كل هذا النعيم بائساً فى يقينك الذي لا دليل عليه الا ما تحسُّ أنت . وما يقينك هذا أيها الأحمق بجانب ثلاثين ظناً من ظنون الفلاسفة ؟

انهم لا يعتدونك شقياً ألبتةَ حتى تشقى بثلاثين نوعا من البؤس كما سعدتَ عندهم بثلاثين نوعاً من السعادة . . !

كلمتان هما تعريف السعادة التي ضل فيها ضلالُ الفلاسفة والعلماء . وهما من لغة السعادة نفسها الان لغتها سَلسةٌ قليلة المقاطع كلغة الاطفال التي ينطوي الحرف الواحد منها على شعور النفس كلها ، أتدرى ماهما . أفتدري ماالسعادة ؟ طُمَأنينةُ القلب .

ذاك أيها القمر وانى لأحس كذلك أن قلبي يطرح على ساحل أشعتك بقايا مافيه من الآمال المحطمة التي طال مثواها فى لُجَج الهمّ ، كبقايا الغرقى فى أعماق اليمّ . وليت شعرى ماعسى أن تُجدى هذه البقايا ؟ انها أثر من رجاء ماضٍ فى زمن وقع وانقطع ، أو كلمةٌ طيبةٌ قدمات اهلها ، اوشعاعُ ابتسامة أخلدها الحبُّ فى قلبي لانها روح شبابى والأرواح خالدة ، أو معنًى حزينٌ تعشقه الدموع فلا تزال تُنازع اليه ،

أو قطعة مثلمة من الذكرى تمر الأحزان من صدوعها ، أو آمال في المستقبل البعيد كأنها أحلام يعد بها النائم نفسه قبل أن ينام . . ! ويكسوها الهم البليغ ثوب الاستعارة فيتخيلها ابتسامات من السعادة كما يرى المدمن في عناقيد الكرم سحابة من الخمر ، او بقية من حياة معذبة . يقول فلاسفة البؤس إن القدر أبقى عليها لأنها من حصة القضاء ، ويقول حكماء الإيمان إنها بقية معلومة لغاية مجهولة متى انتهينا في طريق العذاب اليها[1] رأينا ثمّت عناية الله .

فدعني أيها القمر أحمل في نورك بقايا عمري . إني كلما قطعت مرحلة في سبيل الحياة وضعت عندها أحمالي وعدت أدراجي لأجمع مايكون قد تناثر منّي ، فأقطع كل مرحلة ثلاث مرات ، أما إحداها فأكون فيها كالشيخ الفاني يدلف مثقلاً بأيامه ، وأما الثانية فأمضي فيها خفيفاً لا احمل الا النوم في أجفاني ، وأما الاخرى فأعود منها بأثارة

---

(١) الضمير راجع الى الغاية

من الأحلام تخف على نفسى لولا مايخالطها من ثقل الفكر فى قطع مرحلة النهار الجديد .

ولو كنت من السعداء لسخر لى القدر من يحمل عنى بل لكان ظلي نفسه حمالاً ... واذا أردت أن ترى قوماً يرثون من لم يلدهم ولم يكن من ذوي قرباهم ولم يمت اليهم بسبب واصل فانظر الى البائسين فان كل واحد منهم يحمل أثقاله وأثقالاً مع أثقاله . وليس اخف من أحمال البؤس وحده اذ هى لا تعدو الجوع الذي تكسر شرته بكسرة من الخبز والتعب الذى يذوب فى غمضة العين ساعة النوم . وما عدا ذلك مما يحمله البائسون فانما هو من أثقال السعداء لانه لا بد من ظهور للحمل ... فمن يحمل الامراض التى لا قوام للعالم الا بها مدة صحة السعداء ، ومن يحمل الهموم مدة نعيمهم واغترارهم ، ومن يحمل الدموع مدة ضحكهم وافترارهم ؟ ومن ومن ثم ومن الا هذا البائس الذى تصيبه

دائماً واقفاً فى طريق الاقدار لانه برقة قلبه وسذاجة روحه يكون دائماً أقرب الناس الى السماء

أما أولئك الذين يغيبون فى ظلمات العالم يتهجون كما يتهج السمك فى ظلمات الماء فكثيراً ما تتعاون الاقدار متساندة وتتظاهر لجر واحد منهم حتى تكون عليه كخيوط الشبكة وهو مع ذلك يفتتأ يجاهدها ليفلت منها ، فترى ثَمَّ شبكة هذا الحوت الذهبي وقد علقت بها الأيدى تقرض فيها الاصدقاء من جهة والأطباء من جهة وغيرهم من جهة وبالجملة فان ماله يستحيل يومئذ الى مقاريض تأخذ شبكة الاقدار من كل جهاتها .

فان كانت القاضية فكثيراً ما يموت هذا السعيد وهو يجذب الاقدار أو وهى تجذبه كأنه يريد أن يكون موتاً للموت . ويتصدف وجهه مرة ويتشيح به مرة كأن الارض ذابت أو تخلخلت فأصبحت لا تقوى أن تحمله فضلاً عن أن تمسكه

وكأن الجهات الأربع انزوت عنه فلا يرى الا جهة السماء ثم يحتضر والحياة أمرٌ ماوجدها وكل نفس فى فمه كأنه قبلة مرة تقطر على شفتيه من فم الرذيلة الشوهاء. ويكشف عنه غطاؤه فيرى ماضيه بعين صافية تكاد نظراتها تكون عقولاً مفكرة فلا تنفذ احداها الى أمر من أموره أو فعلة من فعلاته الا ابانت عن نفسها وكانت كأنها تشهد عليه. فمن حيثما التفت لا يرى الا وجوه الأدلة ومن حيثما أصغى لا يسمع الا إقرارها ، ويدركه الموت فيقول إنى تبت الآن . . كلا إنها كلمة هو قائلها وإنها لا تغني عنه من الله من شيء وإنه ليقبل بها على الله وهى فى فمه كالفضيحة أو أشد خزياً . ثم يموت وقد جهد بالموت وجهد الموت به فيصعدان وكلاهما متباطيء والموت ما يكاد يحمله ويحمل نفسه . لا كما يموت الفقير خفيفاً هادئاً كأنه طائر بسط جناحيه وطار . ولا كما يصعد خفيفاً هادئاً كأنه معنى جميل تذهب به رسالة معطرة .

واكبرُ ظني أن بعض الاغنياء يموت في الارض وينتهي الى السماء ميتاً ولا يحيا هناك الا بعلاج ... يدفع ثمنه بيدنه الذي لا يملك في الآخرة غيره كما يدفع السجين المُفْلِس للحكومة أجْرَ ما يأكله في سجنها من أعماله .

وما كتبَ الملائكةُ قط صحيفةً هي أشأم طائراً في السماء من صحيفة غني حين يُحْتَضَر وهذه الصحيفةُ التي تطير بمعانيها هي التي تنطبع فيها ظنونُ النفسِ الراحلةِ سطوراً كأنها « فُتُغراف » الموت . وأحسب أن السطر الاول من (الظنون الغنية) يكون جبناً شديداً ويكون السطر الثاني خلاءً ! لانه موضع رِعْدَة فلا تثبت فيه يدُ الملَك ويكون الثالث ندماً والرابع مُجَازفةً والخامس رجاءً ! مستحيلاً والسادس أملاً مضحكاً والسابع كلماتٍ ركيكة من الايمان الضئيل والثامنُ حروف خيالاتٍ من الماضي الأثيم كانها مقبلة بمخازيها ، أما ما بقي مما يُوفى على التتمة فالى الله

أمرُه وفى الثمانية ما انَّ قليلهُ أهلٌ لان يُستعظَمَ فيُستعاذَ بالله منه .

وما كل الاغنياء يَلْقَوْن ربهم بمثل هذه الصحيفة السوداء إن أُريدُ الا الغني الذى يعيش فقيراً ليموت غنياً فترى أمواله أرقاماً لا عِداد لها تملأ السفاتج [1] والدفاتر والدواوين وليس فيها رقمٌ مؤمن تُثبته الملائكة فى صحيفة الحسنات ليخرج من حساب الناس الى حساب الله .

وليت شعرى ما ذا يريد هذا الغنىُّ الاصطلاحى . أيريد أن يشتريَ الارض أم أهلها. وهل يظن أنه يوم يشترى الارضَ لا يشترى فيها قبره . ويوم يَسترقُّ الناس لا يشترى بماله من يلعنـه ؟ واذا دُفن تاريخ امرىء فانما تُفتح له لعنة بغيضة من لَعَنات الناس ويُهالُ عليـه ألفاظ بغيضةٌ من الاحتقار فيَثوى من ذلك فى قبر ابدى

(١) هى الحوالات وقد عرفت فى التمدن الاسلامى قبل أن يعرفها الاوربيون وأخذها المسلمون عن الصين

المالُ الكثير حاجات كثيرة ، وحاجاتُ هذا الانسان الضعيفِ معدودة محدودة . ومهما حاول وزاول فانه لن يعدُوَ حده الطبيعي إذ قد عرفت الطبيعة غُرورَهُ وطِماحَه فجعلت له من المَعِدَة قيداً فى باطنه ووضعتْ عليه من القلب قُفلاً صغيراً بَيْدَ أنه متين لا يقتحِمُه الا الموت . فليَعلْ الأغنياء ماشاؤا فانهم لا يزالون من الطبيعة حيث هم بجانب الفقراء والمساكين ههُنا وهُنا . والحقيقة محدودة دائماً بذاتها ولكنَّ الوهمَ قبحَه الله . ! هل رأيت رجلاً ينظر بعيني رأسه الى شَرَف مرتفع (١) فيلمح فيه رأس رجل قد أطلَّ ثم يحسب ضلّةً أن هذا الرأس قد انخلَع من مَغْرِزِ العُنُق فارتفع حيث يلوح وترك جثته متخلّفةً على الارض ؟

انك لا تجد هذا الرجل ولا بين المجانين ولكنك واجدٌ عالماً بين الفقراء كلّه ذلك الرجلُ متى التبس الأمر قليلاً وصار الارتفاع فى طبقاتِ الغنى دون طبقات الهواء . لان

---

(١) الشرف المكان المرتفع من الارض

الفقير ينظر الى الغنيّ بارادته لا بعينه فاذا كانت ارادته في الغني لا حدّ لها فهو لا يرى حدًّا للغني بل قد يراه من الارتفاع والسموّ فى مكان لو قذفه منه بكلمه سخط لقتله . . . !

وكذلك يُلقى الغنيُّ عينيه حين ينظر الى الفقير ولا يراه الا بباصرة من هواه ولذّاته ، فقل الآن فى قصرٍ كأنه من الدنيا صَدَفَةٌ تنفتح عن لؤلؤتها ، قد بالغ صاحبه فى زُخرفه وأوسعه من شهوات نفسه واقامه على الارض كأنه ليس منها ثم يدخله ظامئاً ظمأَ الشباب وقد ملكته سَوْرة العافية ويجول فى أبهائه وحُجُراته متشاوساً ما يُمسك عِطْفَيه كِبْرا وخيلاء ، وينتهي الى أجمل موضع منه على ما بلغ من جماله فاذا هو لا يرى ثَمّتَ الا ثوباً أدْكَنَ مُغْبرًّا كأنه منسوج من أجنحة الذباب وقد بَلِيَ وتهتّك واستوضحت فى جوانبه رُقَعٌ بادية من أضلاع فقير بائس قامت به رئتاه (١)

(١) كناية عن المرض بالسل

فما ينفك يضبُ فمه دماً وصديداً وهو مهزول يضطرب فى ثوب أضيقَ من رئته وما يكاد يملوءه كأنه بقايا عظام الميت في كفن قديم .

ولو عقَل الفقيرُ المسكين لعرف انه مهما صغرت قطعة الزجاج الملوّنة فانها تصبغ الفضاء الواسعَ كلّه بلونها فى رأي العين . فالفقر هو الذي صبغ الغنىّ بألوانه البهجة الرفّافةِ لا الغني ، ولو صح نظرُ الفقير لصحت قيمة الغنيّ ولصار أمر هذا القياس الى الحاجة التى لا بد منها لكليهما وهما سواء فيها يجدها الغنىّ بلا كدٍّ فتى تناولها أتعبته وملّها ، ويكدَحُ لها الفقير فتى تناولها أراحته ورضيها أكثرَها واقلَّها . وحين ينام كلاهما ويخرجان عما في أيديهما على قلته وكثرته ويستسلمان لله مُمسكِ الارواح ومُرجِعها وينطرحان على تراب الابدية الذى يتساقط به الليلُ ويرتقبان جميعاً من رحمة الله نهاراً جديداً ، فحينئذٍ لا يراهما الناظر الا جثتين على صَوْغٍ واحد لا يعلمَ أيهما التى يُمسكها الله وأيهما التي يرسلها فتستيقظ ؟

وكأنهما على تلك الحال إنما افترقا طويلاً بالفقر والغنى عن طاعة الله فتنافرا وتدابراثم التقيا لوجه بغتــةً فخرّ كلاهما صَعِقاً .

ليهْنَأ الفقير أنه الأساسُ القائم من الأحجار الصُّلبة فى بناء هذا المجتمع وأن الترميمَ لا يتناول الاما فوقه . ولا تكون الصلابة بلا شيء فانما يشترى الانسانُ بفقره نعماً كثيرةً من الله ولكن اللؤم يسوّلُ له أن يُساوم الناس عليها فلا يجد من يشترى منه الا قوّته وعمَله لان الأيدىَ التى خُلقت لحمل الذهب لم تخلق لحمل العالمَ فيبتئس هذا الفقير ويحسب انه وحده البِضاعةُ المُزجاةُ التى لا تُقوَّمُ في سوق الغني بثمن الا بضعَ رُغفانٍ من الخبز ، فتجفُّ أصولُ الدموع الليّنة من عينيه ولا يبقى فيهما الا اللحاظُ الخَشِنةُ وتصبحان فى نظرهما الى الفضائل كأنهما عينا بُندقة الصائد يسدّدهما الى الطيور الجميلة فلا تقذفان الا بالموت ، ويصبح

هذ الفقيرُ البائس وقد خلط فضائله بالرِّثة[1] من متاع بيته القذر ولا يزال بنفسه يَرُوضها و يُسَرِّي عنها الخوفَ المطمئن الذي هو معنى الإيمان حتى يزول عنها كما يزول النهار فاذا هي حالكة عمياء، ويخرجُ التعِسُ من الفقر كما خرج من الغنى ذلك هو الخُسْرانُ المُبين .

ولا عجبَ أن يخرج بائس من الفقر فان وراء هذا الفقر منزلة اخرى لا ينحدر اليها الا أتعسُ خلق الله وسبيلُها من الفقر نفسه . تلك هي الجريمة .

ولا تحسبنَّ الاغنياء المجرمين على غنى فأن كل شيء يُسرَق حتى الغنى وحتى اللصُّ يسرق نفسه من يد الشرْطِيّ بعد ان يكون قد جمعها عليه . والفقير الذى يطمح الى الغنى كالغني الذى يطمح الى ماهو أغنى ، كلاهما فقر وكلاهما طريق الى الجريمة

---

(١) الرثة ما كان قذرا خسيسا من متاع البيت

ويحك لِمَ تبتئِس أيها الفقير ؛ الغنيُّ يريد أن يجعل حظوظَ الناس جميعاً حظّاً واحداً ليختص نفسه بهذا الحظ . وأنت تريد أن تختص بحظ الغني ... فماذا تركتما لله الذى يؤتى المُلْكَ من يشاء وينزِعُ المُلْكَ ممن يشاء ؟

ان الله قد ائتمنك على أعز الفضائل وأعزّها من الصبر والقناعة وشرف الضمير . وأشرفَ بك على مَصارع الاغنياء فرأيتَ كيف يخفق قلبُ أحدهم وهو يحسبه كرة الارض زلزلَتْ زلزالهَا . وكيف تطرف عينه وهو يتوهمها اللُّجَّة التى تبتلع كل مافي رأسه من الأحلام ، وكيف يموت وهو يرى كل ما كان في يده كالظل على الماء لايذوب ماءً ا ولا يبقي ظلاً . ويرى انه كان يشترى المال الذى لاحدَّ له بالعمر المحدود فلما أفلس من هذا خسر اثْنَيْهِما جميعاً

أفتحزن أيها الفقير على أنك تشترى بعمرك هناء القلب وعافيةَ الجسم ومحبةَ الناس وثوابَ الله وابتسامةَ الموت ؟

لا تَتَعجلِ القدَر ولا تختطَّ لله خطة المستقبل ولا تُغَذِّ النسيانَ بأفكارك حين تفكر فى البعيد فانك في حاجة اليها واعلم أن الآلة التى تُدير هذا العالمَ انما تُدار من فوق حيث لا تصلُ اليها اليدُ التى تحاوِل أن توقفها أو تُبطِّيء من حركتها أو تزيدَ فيها، يدُ المجنون الذى يصيد النجوم بالشبكة حين تنبعث أخيلتُها فى الماء الصافى ..! وكن إنساناً لا أكثر فانك تحاول أن تصير إلهاً فتصير شيطاناً، واجعل من فقرك ومصائبك وأحزانك سِماداً لهذه الزهرة الناضرة، زهرة الروح الحية فانها تغتذى بكل ذلك وتُحيله الى نَضْرة وجمال وعطر يتأرج، وأَضِئْ نفسك فان حولك ضياءً يغمرك من لَدُن تفتح عينيك الى أن تنام ولا تكن كالسفْعة[1] فى وجه الشمس ولا كالغبار فى النسمات ولا كالريح الخبيثة فى أريج الأزهار وان عرَضَ لك شرٌّ أو طمعٌ أو شيطانٌ فاجعل

---

(١) السواد في وجه الشمس

السماء بينك وبينه فان فى باطنك قطعةً منها، وترفّق بصبرك لا تجهدْه وبدمعك لا تُفْنِه فانهما الزاد والماء لمن يقطع هذه المَفَازَة المهلكة من الدنيا سالماً ولا يريد أن يأكل من جيفها أو يكون فيها جيفة تُؤْكل. ولا تُراء الناس في شيء فانك تفقد نفسك بينهم ولا تَحْصُلُ عليهم الا ظلالاً وخيالات. ولعَمْرى ما ذا ينفعك أن تمشى وراء الملك لتقيس خُطُواته؟

إني لأرى قوماً يُعفُون لحاهم ليجعلوا سبالها الطويلة حبالاً تتعلق بها النفوس الساقطة الى السماء. وآخرين يقيسون ما بين حيطان المساجد بجباههم فلا تجد موضع شبر الا وقد سجدوا عليه لتصير هذه الجبهةُ الضيّقة (ذراعا معماريًّا)... فى قسمة الجنة التى عرضها السموات والارض (١)

---

(١) المراد بهذا المعنى وما قبله المتعبدون الذين يتسمون بالصلاح ليغروا الناس ويأكلوا باسم الله...

اجترءوا على الله ليراهم الناس أقوياء فلا يجتريء عليهم أحد ولم يبالوا بأن الله (سيأخذهم) بذنوبهم ما دام ذلك لا يكون بعد أن يأخذوا من الناس . وهذه السين (سين التسويف)[1] طويلة العمر جداً عند هذه الفئة وأمثالهم من الغافلين فان عمرها يبلغ ما بين الوهم والحقيقة وما بين نعيم الدنيا وعقاب الآخرة .

فلا يهولنك أيها الفقير المسكين من أمر الاغنياء ولا تنزل نفسك بالمهانة دونهم وانت أعظم أجراً فانك تقرض الله من نفسك وان أفضلهم من أقرض ربه من دراهمه ، وكن فى الحياة السافلة ابن الموت واذا كنت شجاعاً فلا تبال آخرة الحرب ما تكون ، واعلم ان الفقر الذى يلتوي عن طريقه كالسيف القاطع اذا لم يضرب به صفحاً فانه ينكسر لا محالة ويكون حامله قد أهان أشرف ما فيه إذ

---

(٢) اي ؛ سيأخذهم

نزل به دون (حده) ، فلا تُهِن الفقر الشريف حتى تَرِدَ به على الله صالحاً نقياً يُوضح منك بكل ضاحكة [1] وتمزج بطهارته ابتسامات الملائكة التي هي ثمن دموعك . ويكون لك في الخُلْد فجراً أبدياً كما يكون للمحبين نورُ القمر فجراً في أول الليل .

***

(١) أي يجعلك مبتسما

الفصل الرابع

آهٍ عليكِ يا قمري الجميل وآهٍ على هذا السحر السماوي لو يكونُ للجمال الارضي شيء منه يتفادى به من لسان واشٍ وعذول . انك لتسكبُ الصمتَ والنومَ والأحلامَ على الأرض فى ضيائك ممزوجةً بالأفكار الجميلة لرؤس الفلاسفة التى تُشبه القلوب المحرَمةَ ولقلوب العشاق التى أعرف كل قلب منها كأنه عقلُ فيلسوف . فما تكاد تطلع وتعتلي الأُفق حتى تراك الارض كأنك على فم السماء إشارةٌ لها بالسكوت فتسكت . وان بقي فيها من يُشرق النهار فى عينيه[1] كأنه مختبيءٌ فيهما بحركته وضوضائه كجماعة مُحْرِزى المال من لصوص النهار وطالبي المال من لصوص الليل مثلاً . . .

فان الطبيعة تلقي عليه سكوناً ينزل بالليل وظُلَمِه شيئاً فشيئاً فيبتدىء خفيفاً كالنوم الذى يُلاعبُ اليقَظَةَ فى الاجفان .

---

(١) كناية عن السهر بعد مغيب النهار

يجرى وراءها وتشتدُّ وراءه وكلاهما يدخل من الباب الذى خرج منه الآخر فلا نومٌ ولا يقظة ، ثم يثقل كأنه النسيان يداعب الذاكرة الضعيفة ثم ينبسط ثم يستحكم فيجعل ذلك الهرِ الذى يشرق النهار من عينيه كأنه فى عمله لفظ ركيكٌ يضطرب فى لسانٍ مُحتَبَسٍ [1] فلا تلفظه الأرض ولا تسمعه السماء .

أنت ياقمرى الجميل رايةُ السلام الالهيةُ البيضاءُ لا تُرفَع للنهار حتى يُغمِدَ حُسامَ الضياءِ في جفنه الأسود وتسكنَ غمغمةُ الحرب التى يتقاتل اهلُها على الحياة وتنطبقَ اجفانُ الناس فكأن كل جفنين إناءٌ امتلأ ن حياة امرىء زَمّتْ شفتيها كيلا تزعج ملائكة السماء بهذه الاصوات الوحشيةِ المنكرةِ التى تنبعث من فم النهار فتقبلَ على التسبيح لله ، وتُقبلَ الطيور وهى ملائكة الطبيعة على المناغاة ، ويقبلَ

---

(١) أي فيه حبسة وهى عيب من عيوب النطق لايستطاع النطق معها من غير عنت واضطراب

العشاقُ وهم ملائكة الناس على الفكر والنَّجوَى ، ويقبلَ الشعراء من وراء أولئك جميعاً فينظمون الشعر الالهي الذي تمتزج فيه ألحان الملائكة بأنغام الطيور وآهات العشاق فيمتلىء من أسرار الفكر والعاطفة والقلب ويخرج وانه ليكاد يُخلق منه العقل ، وترى فيه الروحُ باباً من أبواب السماء كأنه الطهارة وكِنّاً من أكنان الطبيعة كأنه القناعة ومنفذاً من منافذ القلوب كأنه الحب ، فاذاهى بالسماءِ والأرض بين كلمات واذا كلماتٌ تملأ مابين السماء والارض ، ثم ترى الفكر الانسانى قد استحال الى أمواج من الخيال يجرى فيها القلب كأنه زَوْرق من الزوارق فتثب اليه وما هو الا أن يحتويِ بها حتى تتناولِ مجدافَه البديعَ المصنوعَ من جوهر العواطف والذي لا يبرح ملتصقاً به كأنه يد الحسناء على على قلب عاشقها . ومن ثَمَّ يجري بها في بحر الجمال الذي تشبه السماء كلُّها موجةً من أمواجهِ الابدية والذى لا

ساحلٌ له الانورُ الفجر والذي يُخيَّل اليَّ أنك أنت أيها القمر جزيرةٌ تلوح فيه على بُعد .

لا كهذا الشعر البارد الثقيل الذي تفرغه ... افواه بعض شعرائنا ... المشهورين (١) .. وكأن ألفاظه تَضَقْضُقُ الأسنان من شدة البرد وكأن معانيه العذبَةَ ماء يُستَساغُ على الريق ... واذا بلغت به الحماسةُ المنطقية ... رأيته فاتراً كانما يتثاءبون به . واذا اراد أحدهم أن يضع روحه في بيت من الابيات ولو انطرح بعده جثةً باردة ... خرج هذا البيت رغم انفك حاراً كما شاء وانصرف عن انفك

(١) لا يذهبن عن أصحابنا أننا نعني بعضهم في الشرق كله فمن رأى جملته من هذا التفصيل واسمع الناس وأسمعوه فقد برئنا أن نكون بهتناه واغلالهم للناس نفسه . ولعلنا نفرد كتاباً خاصاً بالقول في شعراء هذا الزمن وكتابه ومراتبهم على أقدارهم من الصناعة وتاريخها ثم الموازنة بينهم على أقدارهم كذلك

وأنت تتنسَّم كأن ما فيه من الروح إنما خرج اليه من تحت إبطه . . . .

شعراء !! وشعراء الشرق !! نَعَم ونَعِيمَ عَيْن[1] . وعند الزنوج جماعة يُحسنون الرقص على نقر الطبول هم شعراؤهم بل شعراء العقول الذاهلة والأحلام الطائشة بل شعراء الوحشية التى تكتب بأسنانها وأظافرها .

هذه الوجوهُ التي صَلُبتْ من التمرغ على الأعتاب وهذه الأيدى التى ينكرها الله حين تُمَدُّ . . وهذه الرؤس الفارغة الا من جنون العظَمَة . وهذه القلوبُ التي تَسَع كل متماثِلَين إلا الإخلاصَ وحبَّ الحقيقة . وهذه الأفواه التى تمجُّ الماء فى كل جهة . وهذه الألسنةُ المعقودة على بعض الفاظ كما يعقد القَرويُّ الجلْفُ تلك العُقَد الكثيرة فى منديله على درهمين . . . هذه كلُّها مجموعةً ومتفرقةً مما يتنزه الشعر

(١) يقال عند المبالغة فى المجاملة نعم ونعيم عين او نعم ونعمة عين

الالهي أن يُسِفَّ اليها لان أنفاسَ السماء لاتسقط هذا السقوط كله ولايعذبها الله بان تهبّ على الأرض لكَنْس غُبارها . . .

لو عدا الشاعرُ الصحيح طوْر التكوين الشعري بصفاته لما كان منه الانبيّ . وان تلك الاعضاء الشعْريّة التى يَفيض الفكر عليها كلها الهي الأعضاء التى يتجسم بها مجدُ الامة ليكون مَلكاً من ملوك التاريخ لالصاً من لصوصه تشهد معَارفُ وجهه أنه منطلق من حبسه فيتراءى عليه غبار الاعتاب كأنه بقية مما كان فيه من الظلمة وتراه لايلوذ من خزيه الابزوايا التاريخ المجهولة ويودُّ بجَدْع الأنف لو يُمسَخُ حجراً من أحجارها التى كل عذرها فى الخراب .

الشاعرُ الصحيحُ رجلُ الكمال السماوي لان الشعر اذا لم يكن مع الشرائع كان عليها وفى ذلك فساد كبير . . والشعراء انفُسهم كالشرائع تكون لمن يشاء أن تكون له ،

وهم يحكمون النفوس بالحب والشرائعُ تحكمها بالرهبة ولولاهم ما أعُطِي الناس قوةَ فهم التعزية فلم يكن لهم أن يطمئنوا لدينٍ منِ الأديان . وانك لترى الشاعر يستلُّ جمالَ هذه الطبيعةِ كلها من نفسه الكبيرة ليلقي على الناس محبةً منها كأن الطبيعة لا تجد طريقاً الى النفوس الضعيفة الا بعد أن تُصفَّى وتُصفَّق في نفوس الشعراء فتخرج منها كما تنبعث المعاني الغزَليةُ الكثيرةُ من عيني الحسناء الفاتنة ولكل معنى طابَعُهُ الخاص به في النفس مع أنها جميعاً من مصدر واحد . . .

وما هذه العظائم الكبرى التي يمثل بها الزمنُ تاريخَ العقل الإنساني الا أفكار وُلدت بَدِيئاً في قرائح الشعراء ثم كفَلَتها الطبيعة تحملها في مهد من قلب امرأة جميلة أو تَمْتَهِدُ لها في عقل رجل حكيم أو فيما تختاره هي كائناً ما كان حتى في الاستبداد والوحشية والحماقة والجنون وغيرها لأن

للطبيعة حكمتها التى لا يعرف كُنْهَها الانسان الا باستقراء تاريخ الاشياء فى أجيال وقرون قبل ذلك كثيرةٍ وهو نفسه بعض هذه الاشياء .

فالشاعر الزائفُ كالدينار الزائف كلاهما لا يجوز على أحد الا مع الغفلة وكلاهما رذيلة في نفسه بالغش ومصيبةٌ على غيره بالخسارة

وان الذباب ليَقَع على الزهرْ كما يقَع النحل ليجنيَ العسل ، وانه ليطِنُّ فى الروض كما تُغرّد الطيورُ لترقيص قلوبها الصغيرة ، ثم يطير عن الزهرة ذباباً كما وقع ويسكتُ ذباباً كما طنَّ وكيفما نظرت اليه لا تراه ذباباً ولكنه من الطير . ولكنهم من الشعراء . . .

حَنَانَيْك ياقمري الجميلَ ورُحماك . إمسح عن قلبي هذه الغَيْمةَ السوداء التي انتشرت من أجنحة الذباب فقد رانَتْ عليه وغشّى ظلها على بصرى حتى ما أراك على وَسامتِكَ

وضيائك الا كوجه من تلك الوجوه التى تصطبغ بكل لون الا ما كان من الُخلق الَحسن فانها تستمد من قلوب يكفي أحدُها أن يكون (طِينةً) لخلق نوع من الانسان بلا أخلاق . . .

حنانيكَ ورحماكَ ان على قلبي غيمةً كأنها من الكذب الذي لاصدق معه من القلب . والتملقِ الذى لاحياء فيه من النفس . والخيانةِ التي انعقد عليها الضميرُ فلا تحفظ غيبَ انسان والصلَفِ الذى يُشبه صلفَ المعتوه إذ يُباح له أن يتجنّى ولا يُباح لك أن تعتب والظلِ الاخلاقي البارد الذي يحيط بأحدهم فيجعلَ مثواه كأنه مغارة تبعث عليك أنفاسَها ثقيلةً باردة فى ظلمة وكبرياء كأنما هى خارجة من أعماق تاريخ الفراعنة . . .

وإنى كما أُغمض عينىَّ حين يواجهني الإعصارُ الاحمق الذى ينفض بساطَ الارض فى وجوه السابلة أرانى

منذ الساعة قد أغمضت عيناً في قلبي تطلَّع على الحقيقة.
إذ لم أكد ارفع كأس الحكمة المعسولة لأحتسيها ولم
تكد تُقارب شفتيَّ حتى تهافَتَ عليها ذبابُ تلك الاخلاق
فأحرزتُها جانباً لتسكنَ نفسي بعد أن خَبُثَت من منظر
هذه الظلالِ السوداء التي هي أجسامُ نفسها وظلالُها
معاً . . .

فاحمل الىَّ أيها القمر قطرةً من ندى الروح الجميلة
الذي ينسكب في أنفاس تلك الحبيبة وأرسلها الى كأسي
في قناة من أشعتك السحرية حتى تمتزجَ بالحكمة على
شفتيَّ فكأني أتناول هذه الحكمة من ثغرها البسَّام.

الفصل الخامس

يالها لحظة جمدت على قلبي أيها القمر حتى كدت أحسبُ الزمن لايجري بل كدت أحسبني استحَلتُ الى قطعة ثابتة من الأبديّة التي لايدخُلها شيء من الدنيا الا ميتاً حتى الزمنُ نفسه .

ولكن « ثغرها البسَّام » لم يَدَعني أموت في شعاعه الذي يتدفَّق بحياة حلوة لذيذة وبموتٍ أحلى منها وألذّ غير أنه لا يُميت لأن الحسن يبخل على الحب بمثل هذا الموت الهَنيء . ولو كانت روح كل محب لاتُنتزَع الا بقُبلة ولا تَفيض الا مع الابتسام ولا تجد قُفْلَ باب السماء الا هذا الفمَ الورديّ الرقيق لتغير نظام القلب الانساني ولصارت كل نبضة من نبَضَاته كأنها خطوة واسعة في قطع المسافة بين الدنيا والآخرة إذ يكون للحياة وقتئذ

ماعهدناه من بغض الموت ويكون للموت مانعرفه من حب الحياة .

فلا يزال الحسنُ تخيلاً لان الآخرة لاتزال بعيدة مادامت فى علم الله وحده ، ولايبرحُ الحبُّ عذابا لان الجمال لم يبرح فى نظام الله مادّةَ حب الحياة ولو لم تكن في الارض هذه الوجوهُ الجميلةُ لما صلُحَت الأرض للحياة العاقلة ولا نشأ فيها عقل واحد يستطيع ان يجد دليلاً على وجود الله فان تلك الوجوه الفتّانة — بما تحوى من المعانى التى تشبه في إقناعها للنفس من النظرة الاولى ما يَحويه أقوى البراهين المنطقية — انما هى فى الحقيقة الصفحَاتُ الأُوَلُ من كتاب المَنْطِقِ الالهى . وأنت فاعتَبِرْ ذلك بهؤلاء المَلاَحِدة الذين ينكرون الخالقَ فان أخبثهم إلحاداً لايكون الا أشدَّ الناس بغضاً لطهارة الجمال كأنه أشدُّهم بعداً من طهارة القلب .

لم يدَعْ ثغرها البسّامُ أصعد الى السماء في شعاعه بل

ألقى على ابتسامةً في نظرة ضاحكة تشابه ابتسامة أخرى كأن احداهما أختُ الثانيــة فما أحاطت بقلبي حتى رأيته يذوب فيها كما يذوب السحاب الغَدِقُ الأسْحَم (١) فيصفو عن غمامة رقيقة بيضاء .

وكأن تلك المليحة أغارتك ايها القمر فانت الآن تبتسم . لله منكما ياصورتى الجمال فى الارض والسماء وهل جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . فيَسَعكَ ويَسَعها ؟

ولله ماألطفَ هذا الشعاعَ الذى يسيل الآن على الجوّ رقيقاًخصِراً (٢) كانما تغتسل به نَسمة من النَّسمات العَطِرة بعدأن استيقظت فى هذا الليل ونهضت من فراشها على أغصان الورد .

ولله ماأنداه على كبدى الحرّى هذه التى تغيب الشمسُ ويبقى فيها مع ذلك لَفْحةٌ من حرّها ومن حرّ انفاس

---

(١) الاسود الممتلىء يركم بعضه بعضا (٢) الخصر بكسر الصاد البارد

الذين تشرق عليهم فان هذه الكبد أمست في جنبي كأنها «معمل كيماوى» لتحليل تلك الأنفاس وتقدير ما فيها من الخير والشر وما الحكمة كلها الاما أسفر عنه هذا التحليل

فمن لم يدرس طبائع القلوب المتوهجة في أنفاس أهلها لا يعلم قلبه شيئا وان كان رأسه مكتبة من العلوم . ومتى كان القلب جاهلاً بقي الانسان بعلومه كأنه قطعة في أداة هذه الطبيعة كلُّ شأنها أن تُحرِّك بعضها وتتحركَ ببعضها ، وفَقَدَ السلطانَ الحقيقى على الطبيعة نفسها لأن هذا السلطان لا يكون بالقوة التى هى غاية العلم اذ الطبيعةُ على كل حالة أقوى ، ولا يكون بالتسخير الذى هو غاية العمل فالطبيعة حرة لا تذل أبية لا تخضع ، وان ظهرت عليها الذلةُ والمسكَنة فذلك في نظر الانسان واعتداده ليس غير .

ان الهواء لا يعجب من مُنطادٍ [1] يعلو فيه — وان

---

(١) تعريب لفظة البالون

كان غايةَ ما انتهى اليه اختراع الانسان — الا اذا عجب من كل ذبابة تطير. والبحر تتمخر فيه الجواري المُنْشآتُ كالأعلام وتثبت عليه كالمُدُن وتمثّل فيه الأرض المائية التي خُلقت في أذهان الانجليز ⁽١⁾ . . . وإن صُغْرى أسماكه لتكون أصلب منها على مُجالدته، وأقوى على مجاهدته. فما للإنسان يلُوك بين ما ضِغَيه هذه الالفاظ التي يحاول أن يُشبع منها مَعِدةَ الخلود في وهمه ولا تراها الطبيعة الا من غذاء النسيان؟

السلطانُ الحقيقى على الطبيعة سلطان الروح لانها من الله وهذه الطبيعة أداةٌ في يد الله. فليجعل الإنسان شفتيه مخزناً لُغَوياً مملوءاً بألفاظ العلوم، فان الطبيعة لا تبالى بمدلول الحروف مهما حملها على ذلك باصطلاحه. ولكن ليجعل في قلبه علم الخير وإحالةِ الشر الى الخير فان الطبيعة حينئذ

---

(١) هؤلاء الانجليز كأنهم اسماك الارض . . . وعندهم ان الانجليزي لا يقبل الجدال في شيئين الاسطول وشاكسبير:

لا يسعها الا أن تخضع باحساسها خضوع الإجلال لاستاذ تلامذتها وترفع الى الله على يده تعازى المساكين كأنه الأمين على آمال القلوب وتجعل الطبيعة هذه اليد نفسها كأنها شكر منها لله تعالى إذا أنجبت رجلاً من رجالها فى الارض .

كم من عالم لا ترى الطبيعة اندفاع الكلام العلمىّ من شفتيه الا كما يرى أحدنا اندفاع اسراب الخفافيش العمياء من جانبى المغارة وقد أبرزها على إشراق الضحى صبىٌّ من الصبيان ، وسيكون أكثر هذه العلوم فى معاملة الله كالثروة التي يمتلكها الفقير في حُلُم من أحلامه (الذهبية) فيستعبد بها من شاء من مخلوقات النوم ... ويملك ما شاء الله من زخارف الليل المصنوعة من الخرة الدماغ ... حتى اذا جلا النورُ عينيه لم يستطع أن ينال بكل ذلك الغنى العريض كسرةً من الخبز يتبلّغ بها وقد بات طاويا . فان الله لا يُعامِل الا بالنية ، ولا يثبت في سِجِلّ الحسنات الا الارقامَ القلبية . فدع

هذه المدنيّةَ وهذه العلوم تنزعُ ما في قلوب أهل الخير من الخير فانك لن ترى على الارض يومئذ من الناس الا حيوانات عالمة تأكل حيواناتٍ جاهلة ... وهل تحسب قوة الحيوان المفترس بإزاء ضعف ما يفترسه الا علماً أو معنىً كالعلم بإزاء جهل أو معنى كالجهل ؟

ويومئذ لا تُبصر الطبيعةُ بعينها الالهية شيئاً من الفرق بين أنفس الوحوش وأنيابها ومخالبها وبين كتب العلماء وأيديهم وأقلامهم . تلك جميعُها انما تكون في الجهتين أدواتٍ صماء لحرفة حيوانية هي حرفة العيش .

وانت ترى الصورة الصغرى لهذا العالَم الحيواني في جماعة الملحدين فان كل تلك الفاسقةِ وذلك العِلم اللذين يزعمونهما ويَتبذَّلون بهما في الناس انما يدلان على أشياء كثيرة بتداخل بعضها في بعض كالمترادفات اللغوية ثم تراها كلَّها قد صارت الى معنى واحد يدل على الحقيقة التي هي أمُّ هذا الباب كما

يقول النحاة . وهذا المعنى الذى لا رَيْب فيه هو انتزاع الخير من قلوبهم الخبيثةِ المتهكمة بالله .

ولست أصدّق أن ملحداً يعمل لخير الناس ابتغاء الخير نفسه . فان حدثوك بخبر من ذلك فاعلم أنما يريد به الرجلُ برهاناً على صحة إلحاده الانسانى . . . يخدع به من يقدم لهُ الخير أو من يراه وهو يقدمهُ فانه لسخافته يكفر بالله ويريد أن يعمل بعض عملِ الله وما من شيء خبيث نعتدّه شراً الا وفيه جهة تُخرج منه الخير وهذه الجهة فى الإلحاد هي الغرور والوهم فلو أصبْت إلحاداً لا غرور فيه ولا وهم فاعلم انك أصبتَ عقلاً فى مجنون أو جنوناً فى عاقل . وليس ذلك بدْعاً فان فى كل دائرة نقطةً تعدها الغاية التي يرتقى اليها طرفا المحيط اذا نظرتَ اليهما صاعدين نحوها . فان نظرتَ اليهما منحدرين عنها كانت هذه النقطة عينُها مبدء السقوط ولم يكن ثمّتَ فرقٌ بين القوسين المنحدرين الا في الجهة يَمْنَةً ويَسْرَةً كما لا فرق بين عقل المجنون وجنون العاقل الا فى الجهة

لأن كليهما وبال على صاحبه وأحمقُ مايكون المجنون اذا رأيته يتعاقل .

يريد الملحد أن لايقر بشيء يُسمى فلسفةَ النفس أو يسمى ديناً لان الحرفين مُتَرادفان ثم أنت تراه يخرج لك من رأيه مايريد أن يجعله حقيقةً لهذه الفلسفة التى أنكرها . . فهو يكفر بإيمانك ليجعلك تؤمن بكفره وكأنه يقول لك إنما نحن على الارض فانظر فى الأرض واكسر هذا اللَّولبَ الذى تتحرك به عيناك الى جهة السماء حتى يبقى عِلْمُ راسك فيما تحت قدميك . وان سالت عليك السماء بعنصر الحياة[1] فلا تقل هـذا من واهب الحياة ولا من رب السماء ومَهْلاً قليلاً فان الارض ستجمعه في أنهارها وتُنْبطُه من عيونها فتنبع لك الحياة من الارض كما تنشقُّ المادَّة من المادة . ثم يذوب هـذا الـكلام الرقيق فى حلقه فيبلعه مع ريقه ويسكت . . . وكأن بصره الزائغ يقول لك : أما الهواء

(١) كناية عن الماء لان منه كل شيء حي

فان لم تستطع أن تتنفسه من الارض ولم تستطع الارض أن ترفعه لك من تحت قدميك فلا مندوحة لك فى هذا من أن تترك منخريك يُعدّان في المؤمنين برب السماء. ويكونان فيك كما تكون الاعضاء الأثرية ولو حكماً واعتباراً. وإن كان لك ضمير شريف طاهر كأنه مرآة إلهية وُضعت فى الأصل بين جنبي آدم لتمثّل لروحه السماء وجمالها متى أُخرج من الجنة — فاعتدّه رأسَ ماورثتَ من داء عن آبائك الأولين لأنه لا برهان عندهم على فساد الايمان أقوى من هذا الضعف الرحيم فى نزعة القلب [1]. ولعمرى إنه لبرهانٌ سديد في الغاية ولا أبدع منه في علم المنطق لان فيه قوةَ الانعكاس من نفسه فلا يرسلونه حتى يُرَدَّ عليهم كأنه جوابُ أنفسهم على أعتراض ألسنتهم، وأى برهان أقوى على فساد الإلحاد من إرادته أن يكون فى الملحد عقلٌ إنسان

(١) ينسب الملحدون كل شيء فى عقل المؤمن وقلبه الى الجهل او تأثير الوراثة كأنهم هم لا يولدون ولكن يزرعون . . .

وقلبٌ وحش ؟

ثم كأنه يقول لك إن العلم أثبت ونفى وإن الدين نفى وأثبتَ فلا تمايلْ بينهما متردداً وخُذْودَعْ ولكن من العلم وحده فإن شيأ تفهمه خير من شيء لا تفهمه، وكل ما أَبَى العلم فلا تَرضَه لئلا تُرمى بالجهل الاصطلاحى ... واذا كنتَ فقيراً لاتملك الملايين وكنت اشتراكياً فلا تصدق ان أحداً يملكها لان الاشتراكية تأبى ذلك وكن دائماً تنظر ولا تصدق[1] ... وأذا رأيتَ الانسان لايزال عاجزاً الى اليوم عن تعليل أشياءَ كثيرة من البسائط التى تَمتحن بها الطبيعة أطفالها ممن نسميهم العلماءَ فاعلم أن هذا الانسان لايزال ناقصاً فى رأى العلم وسيتمُّ يوماً ما، فحسبك أن تكفر الآن كفراً ناقصاً ... واياك من الغرور وأن تحسب ان نقص الكفر جاء من كون الايمان كاملاً بطبيعته لانه شيء أزلىٌّ فى النفس بل هو جاء من نقص

(١) هذا كله تصوير لمكابرتهم وجمودهم

العلم أومن نقص الانسان العالم فمتى تم هذا يتم ذلك لامحالة فيكون أكبرُ عالم في الأرض أكبرَ كافر فى الارض ... ونحن لانعرف من امر المستقبل شيئاً ولكننا نعرف أن العلم سيبلغ تمامه فى المستقبل ...

لله منك أيتها الفئةُ الباغية. آلعِلمُ[1] الذى لايخلق ذبابة ولا أحقر من ذبابة ولكنه يجدها فيتفلسف ويقول لنا كيف خُلقتْ هو الذي يريدكم على أن تكذّبوا بالخالق؟

والعلم الذي ينتهى فى كل شيء الى كل حدٍّ من الجهل يريد أن يجعل جهلكم علماً؟

بل العلم الذى هو بجملته تفسير عمليٌّ لنظام الكون يريد ان يجعل القلب الذى هو سرُّ الانسان بلا نظام؟

كلا إن العلم لايريد ذلك ولا العلماء أرادوه[2]

---

(١) هذا من اجتماع همزة الاستفهام بهمزة الوصل والاصل أألعلم (٢) اثبت كثير من فلاسفة المتأخرين ان كثيرا مما كان يحسبه العلم حقائق ثابتة ليس الا أوهاما

ولكن قوماً أرادوا أن يشاركوا الله في أنفسهم فعملوا على أن يضعفوا قلوبهم لتقوى عقولهم وحسبوا أنهم أفلحوا وما دروا أن القوة انصرفت عن القلب والعقل معاً وصارت قوة علمية كالقوة التي في كتب المنطق لا تقوم لا ضعف ما في الباطل وهى أسطر وحروف ولا يقوم لها اقوى ما في الحق وهى أغراض وأهواء فما يزال الباطل لها وعليها.[1]

وقد زعموا أنهم أنشطوا الفكر من عقاله فكان من ذلك ما انتهوا اليه وكأنهم يقولون: إن الدين الفلسفي هو فى الحقيقة الرجل الحر. فما بالهم إذن ينسون أن هذه الكلمة عينها تخرج لهم لو عقلوا أن الحرية هى في الحقيقة فلسفة الدين؟

إن المتوحشين يقرون بالله ولكنهم يعملون على أن يكونوا آلهته كما أنه إلههم ويحاولون في كل شيء أن يتعبدوه

---

(١) وعلى هذا مبنى السفسطة الجدلية وهى اثبات ما ينفيه الخصم أو نفى ما يثبته

بما يُخيل لهم انه من السحر . والملحدون لايبتغون ذلك فَحَسْبُ[1] ولكنهم يريدون أن يمحوه بَتّةً . أفليس هذا منتهى التوحش في القياس .. ؟

ليت القوم لم يكفروا بالنطق فيما لا يعرفون فقد كانوا يؤمنون بالصمت . وان السكوت عن الخوض فى أمر الغيب ليكاد يكون أفضلَ بحث فيه . على أننا نرى الكلام[2] أصل البلاء فان من أهل الاديان من هم شرٌ عليها من الكافرين بها . وسواء على الله أكان فاسد الفكر صاحبَ رأى فى الدين أم صاحب رأى فى الالحاد

ولو نظرت الى فِرَق الجَدَليين المختلفة على كثرتها وتعدد مذاهبها لرأيت أن كل فرقة هى فى الحقيقة عقلُ رجل ذكي استهوى اصحاب فرقته ، لا دينُ رجل عاقل لأن الدين لا يتجزأ إذ هو عبادة القلب — الذى لا يدل على

---

(١) أى فقط (٢) يريد علم الكلام

وحدانية الله شيء مثله للاله الواحدِ الذى ليس كمثله شيء .
ولكن العقل لايترك هذا القلب لنفسه بل يعده بمافيه من الحس والشعور كأنه رأسُ ماله في التجارة العامية وكثيراً مايكون أمرهما كالتاجر الذى يخسر ماله ثم يعمد الى ضبط حسابه بعد خسارته فلا يردُّ عليه الحساب شيئاً لاتفصيل ماخسره بما يُشبه فى التحسر واللهفة أن يكون خسارة ثانية .

الفرق بعيدٌ بين أن تكون القوة آنيةً للقلب من العقل وبين أن تكون آنية للعقل من القلب فان تسلط أحدهما على الآخر يضعف أكثر خواصه[1] فالعقل موضعُ الخطأ والصواب لانه آلتهما جميعاً ، وأظهرُ خواصه الشك فانه الخاصية التى يمكن في العقل أن توفّق بين الخطأ والصواب قبل أن يتزايل[2] اثناهما فيتباينا . وهذه الصناعة العقلية كثيراً مايقتضى لها إيجادُ المعضلات التى لاتُحل كي

(١) خواص هذا الآخر (٢) ينفصل أحدهما عن الآخر

تلقي للعقل شغلاً طويلاً ثم يحكم عليها آخرَ الأمر حكماً منطقياً أنها لا تُحل، . . وكثيراً ما تطلب البرهان على شيء ما فاذا أصابته[1] جعلته شيئاً آخر قائما بذاته وطلبت عليه برهانا . . . وهلُمّ جرّاً حتى يقطعَ بها فتصل الى مالا برهان عليه .

والخطيئةُ انما تكون في العقل بَدِيًّا[2] فتُخلَق فكراً ثم تنحدر مع القوة إلى القلب كأنها قوة لهم تقع وتتمثل سخط القلب ورضي العقل غالباً أو رضاهما معاً فى القليل النادر . وهذا السخط القلبي هو الذي يترك فى الرأس أثراً من ذكراها وهو الذى يسميه بعض الناس ندماً ويسميه بعضهم صوت الضمير :

ذلك امر العقل ، اما القلب فهو موضع الحقيقة السماوية التى تظهر بين الناس فى هيا تها فيسمونها المحبة . وبين الملائكة

(١) أى البرهان (٢) بديا وبادىء بدء وبادىء ذى بدء أى أولا

فيسمونها الانسانية . وعنـد الله الا فيسميها الإيمان . وما كان فى القلب غير ذلك فهو من تسلط العقل واستبداده .

وأنت لا ترى أسعدَ الناس وأهناهم بسعادته الا ذلك الذي يُجمِعَ قلبه وعقله أن لا يصدُر أحدهما عن الآخر الا راضياً مرْضياً . فترى في آثار عقله طهارةَ القلب وإيمانَه . وفى آثار قلبه إجادةَ العقل وإحسانَه . ولو كُشِفَ لكَ عن بواطن الأنبياء لتجلَّت لعينيك هذه الحقيقة ماثلة

فمن تُرَى هذا الملحد الذي يَحْدِسُ(١) لك بعقله وهـو وكأنما يحركُ يده فى شـبرٍ من الماء . ويحاول أن يوهمك أنه هزَّ السماء وأنت ترى خيال السماء ألاَ فلْيخلق الناس إن استطاع بلا قلوب فانه سيجدهم لا محَالةَ بلا ايمان والا فليتركهم فان فى العالمَ غير صناعة العقل أشياءَ كثيرةً واليوم الذى يكون فيه كل الناس عقلاء فى الرأى يكون فيه كل الناس مجانين في الحقيقة

---

(١) الحدس الظن

ليس الفرق النظرى بين المؤمن والملحد الا فى تسمية جهل العقل بما وراء الطبيعة ، وكل ما تشعَّب من ذلك فانما هو براهين علمية ... على صحة تسمية هذا الجهل ....

أيها الملحدون : أنا لا أستطيع أن أتعزَّى بالعقل لانه هو الذى يجعل النازلة لا تقبل العزاء . بل المصيبة لا تكون مصيبة الا حين تكون عقلية في حَيِّز من الوهم ، فمتى وقعت مرَّت كأنها حادثة مألوفة تجىء بالنسيان أو يذهب بها النسيان .[1]

---

(١) مما كتبناه فى التعزية هذا الفصل الآتى نورده لان له هنا موضعا :

المصيبة حرسك الله وان كانت اكبر من التعزيه ولكن ثواب الله اكبر من المصيبه والايمان بالله اكبر من الثواب . وما آمن بالله من لا يثق به ولن يثق به من لا يطمئن الى حكمته ولا اطمأن الى حكمته من لا يرضى بحكمه ولا رضى بحكمه من سخط على ما ابتلاه .

ولقد عرفتك من أوثق الناس ايمانا فلتكن من أحسنهم صبرا واجملهم عزاءً ؟ ونحن الضعفاء المساكين انما نعامل الله بما يصيبنا

وأنا لا أستطيع أن أعرف نفسي مركَّبةً على هذا الوجه المعجز الدقيق ثم اتوهم انها خارجة من عَدَم مُطْلَق الى عدم مطلق ، فان الذي يتصوَّر الوجودَ الجاريَ على سُنَن ثابتة كأنه بين عدَمين هو ذلك المجنونُ الذي يتوهم الشجرةَ مخلوقة من ظلها ويتصور ظلَّها قطعة باقية في النهار من ظلمة الليل الغابر ...

وأنا لا استطيع ان اقول عن نفسي (أنا) لأُحقق وجودَها وهي بين ما ضغَى العدم يردِّدها حيناً ثم لاشيء منها الا توهُّمُ انها غداء مالا يتغذَّى .

وانا لا استطيع أن اراني في وهمكم كأنني حُلُمٌ عقليٌّ تهجس به الفلسفة مع ان قلبي فيما أُحِسُّ يقظـة حياة مجسَّمة هي دليلُ نفسها على نفسها .

به فان جزعنا فقد بلغنا حق انفسنا فلا حق لها من بعـد وكأنما أصبنا مرتين ، وان صبرنا فما أحرى أن يكون الصبر على المصيبة هو ربح المصيبة والسلام

وأنا لا استطيع ان اصدق ان حياتى كلها بما فيها من خير وشر لى وعلىَّ تكون فى مَرَدِّ الأمر كالذى يُرسِل في الهواء صرخة مزعجة ليعرف بعدها أنه سَكَتَ وكان قبل ذلك ساكتا .

وانا ايها الملحدون لاأستطيع أن أسخر من نفسي فأرى أن لا نفس لى ولا اريد ان اكون فى حملها كالاعمى الذى يحمل الكتاب حتى يجد بصيراً يقرله . ولا اجهل الى الحد الذى يقر فيه علمكم ان الحياة معناها الموت — لأنه غايتها المُدرَكة — ثم يأبى أن يَطَّرد هذا التعبير فلا يستحى أن يجزم قطعاً بأنه لامعنى للموت الا الموت .

اذهبوا أيها الملحدون الى أجهل الناس من العامة وأشباهِ العامة واقرؤا الايمانَ الالهى فى كتاب قلبه بعد أن تجرّدوه من لغة اللسان التي شأنُها المبالغةُ والتمثيلُ لما لا يُتصوَّر بما يتصوَّر فانكم تُحِسُّون من جهله حين يلتقى بعلمكم ما تحسه

الرئة الفاسدة من نفحات النسيم الذى يتراءى فى أحضان الزهر . وانكم ستجدون فى كلامه معانى سماوية كما تجدون في الطبيعة نفسها ولا جرم أنكم تصدقون حينئذ ولكن لتجدوا من التصديق مادةً عقلية للشك والانكار ، ثم لتصنعوا من كلامه اللذّ ولميةً جديدة للسخرية الجائعة التي لم تشبعها الكتبُ المقدسة كلها ولا آراء الحكماء ولا آمال الإنسانية بل استحال كل ذلك فيها من السرف والضراوة الى غذاء جعلها قوية والى قوة جعلتها أشد نهماً الى الغذاء . .

واذا مسّ أحدكم الضرُّ لم ير بأساً أن يفكر فى الله وأن يرفع الى السماء عيناً لا تثبت في محجريها من الزيغ والقلق كأنه يتكلم بها في ترددها وانقلابها فيقول نعم ولا ، ولا نعم وهو كلما أراد أن يغمضها رأى فى باطنه قوة تفتحها برغمه لتريه السماء بل لتريه برهان السماء فلا يعود الى إلحاده الا

وهو مؤمن بأنه ملحد وشاكٌّ فى أنه مؤمن بذلك ، ولولا هذا الشك بل لولا صناعةُ العقل لـكان في كل شرٍ يُصيب أحد الملحدين خيرٌ للإيمان كثير .

وليت شعري ماذا يراك الملحد أيها القمر ؟ انه لا موضع فى قلبه للحب لان الحب مؤمن ولا مظهر فى نفسه للجمال لانها مُظلمة يَسطع فيها جمالُ الشمس ولا يجاوز في عينه منظر جمرة تلتهب أو قُرص من السِّرْجين يشتعل [1] . وهو فى حالة لا تعرف هناء [2] الفكر حتى يعكر في الهناء بل هو كعالم التشريح ينتظر كل يوم من القدر جثةً هامدة ليخرج منها برهاناً على حقيقة فى علمه أو حقيقةً لبرهان . فما انت أيها القمرى فى رأى عينه على ما أنت الاحجر . . .

---

(١) السرجين روث البهائم وهو عند الفلاحين فى مصر أخو الفحم الحجرى عند الانجليز . . .

(٢) الهناء من المصادر المولدة التي شاع استعمالها والمسموع هناءة ومهنأ ولكنا لا نرى بأساً به

ولكن أيها القمر كن لهم ما وصفوك حتى اذا كفر بالله ملحدٌ ألقمه الله منك (حَجَراً) وكنتَ للطبيعة وجهَ الحقيقة والإيمان كما أنت وجه الحب والجمال .

الفصل السادس

لكن ياقمر السماء ، ويا مثال النيَّة البيضاء ، بل ياشبيه كلمة الرضى المبتسمة على شفتي الحسناء ، هل تغضب الطبيعة على قوم من أهلها وهي كالطفل الضاحك ابداً . وهل تعرف من الناس مؤمنين وملحدين وهي بجملتها شريعة الايمان ؟

اتعرف الحسناء الفاتنةُ من عسى ان يكون لها مبغضاً . وان عرفته فهل تُراها مُستَيْقِنَةً معنى البغض كما يتحققه ذلك الخبيثُ من نفسه وهي هي التي يُلقى عليها الحب صلاتَه وسلامَه ، ويتخذ الحسنُ من الحاظها إشارتَه وكلامَه ، ولا يقابلها الغرامُ أينما التفتت في الناس الا بدمعة أو ابتسامة ؟

يقول الملحدون إن الطبيعة الجميلة تغضب وتحنق لأنهم لا يريدونها الا خادمة فلا ينظرون الى جمالها ، بل الى فعالها . ويقول المؤمنون الذين يرون في كل شيء مظهراً للإيمان إن

غضبَ الجميل نوع من جماله . فلتغضب الطبيعةُ ولتتورد الوجناتُ وليتطاير السحرُ من اللحظات ولينبعث الصوت الصارخ الرهيب من الروح بدون أن يصفيه القلب . ليكن ذلك وما أشبه ذلك من رَوْعَة الغضب فاننا نريد ان نبصر الحسنَ كيف يتحول في غضبه جليلاً بديعاً ، كما رأيناه فى الرضى ليّنا وديعاً ، وكيف تظهر فيه الروح قلقةً لا تطمئن كما ظهر فيه القلب يتأوّه او يئن ونريد ان نرى ولو مرةً انطباق شفتين جميلتين لم يفارقهما الابتسام فان ذلك منهما ولا غرْوَ ابتسامٌ جديد .

كل ما فى الطبيعة جميل غير أن الانسان لم يَتَّسِعْ بعدُ فى درس علم الجمال بمقدار ما يسَعُ هذا العلم الجميل فان الأولين تهيّبوا الطبيعة فعبدوها ولم يمسّوها ولا بالفكر ولم يقرؤا من أجزاء علم الجمال على كثرتها الاجزاء ا واحداً اصابوه فى أصل الخلقة وهو المرأة . وجاء المتأخرون فابتذلوا الطبيعةَ حتى ملوها وكأنما أخذوها عن أوّليّتهم كما يأخذ القصّابُ

بقرةَ البرهميّ من المعبد الى المذبح فلم يبق فى ايديهم من اجزاء علم الجمال الا الجزء الذى اصابوه فى أصل الخلقة وهو المرأة أيضا .

بَيْدَ أنهم تفطَّنوا لمعان من هذا الجزء لم يتنبه لها آباؤهم الأولون فقليلا مايكشفون عن حقائقها الطبيعية فى أجزاء الجمال مما اشتملت عليه السماء والارض تبييناً لما يلفتهم اليه الحب من المعانى المستغلقة في المرأة .

وكما ان العُصفورَ الصغير فى ريشه الليِّن يكاد خفته يكون روح الهواء الذي يحيط بالارض . كذلك تكاد المرأة الجميلة فى وشيها الناعم تكون روح العالم الذى تحيط به الارض . وكل شيء فى الطبيعة يجعله الناس من المسائل النظرية التى يختلفون فيها لانها موضعُ الرأى الا جمالَ المرأة الرائعةِ الجمالِ فهو وحدَه قاعدة التسليم فى القلب الانساني على الإطلاق ويكاد الوجه الجميل يكون فى بعض معانيه وجها حسناً للتوفيق بين الإيمان والإلحاد

والفكر نفسه يكون فى كثير من الاشياء الجميلةِ أجملَ منها لانه رُوحها ولانه غير محدود فى نفسه بالنظر ولا بالصفة الجميلة التي يَحدُّها النظر ، الا الفكرَ فى الحبيبة الحسناء فانها دائماً أجملُ منه لانها روحهُ ولان هذا الفكر مهما اتسع لايجد نفسه الا محدوداً بجمالها .

فياسيداتى الجميلات ، ياقصائدَ ديوانِ الغزَلِ الانسانى ، يامعانىَ شعر الجمالِ الالهى ، ياورقاتِ الوردة التى نُقلت من الجنة الى الارض لتنفحَ برائحتها حتى تستحق الارضُ أن تكون أرضاً يعاش فيها . ماغلبتُنَّ الطبيعةَ التى لا تُغلَب وانما ظهرتُنَّ على الانسان الضعيف الذى طغى على الطبيعة وتوَهم نفسه اشدَّ منها قوةً فرحمتْهُ من قوتها السماوية وتسلَّطت عليه منكن بأضعفَ منه ، بل بالتنهدِ والدمعةِ والابتسامةِ من المرأة الجميلة التي ضعفُها انساني ولكنه على ذلك من قوة الطبيعة . وما إن رأيتُ كثلاثة أشياء لا تُضْبَط اذا

اندفقت ولا تردُّ اذا اندفعت : موجةُ البحرِ المضطربِ ودمعةُ الحزينِ اليائسِ وإرادةُ الحبيبةِ الجميلة .

وهذه الارادة هي المعنى الذي ينتظم الثلاثةَ فهو على انفراده بالثلاثة جميعاً لأَن علم العدد في عُرف الطبيعة يناقضُ أحياناً العلم الذي نعرفه مما تتكرر فيه الوَحدةُ كلما تكرر العدد . فلا يمكن فى (حسابنا) أن يكون الاثنان واحداً لانهما اثنان ، ولكن الطبيعة فى حساب الحب مثلاً تَعدُّ الحبيبين واحداً ولا يعدهما كذلك الا لأنهما اثنان ...

الطبيعةُ جميلة بل هى فوق أن تكون جميلة لان هذه اللفظةَ (الجمال) واحدة من الاصطلاحات المبهمَة التي تمثّل قصور الانسان اللغوى فقد تعاون أفراد هذا الانسان الضعيف على أن يخلقوا الطبيعة خِلقة معنوية فصوّروها باللغة وضبطوها على عِظَمها كما يضبط تاجر اللؤلؤ حساب مافى حقيبته الصغيرة لاحسابَ مافى البحار . وجرَوْا فى

أكثر المعانى السامية هذا المجرى فرب معنى تجده ملء السموات والارض وما تجد له من صفة تحدُّ الا وهى حدٌّ لصفة اخرى ومع ذلك تراهم يدمجونه فى لفظة واحدة مقتضبة لا ليُعرف بها معرفة صحيحة تصفه كما هو ولكن ليؤثر التأثير الذي يقوم في الانسان مقام المعرفة الصحيحة فان الناس يعيشون بهذا التأثير في معظم أمورهم ويعتدُّونه لقلة علمهم علماً وإحاطة .

وهذه اللغة الناقصة التى تصور الطبيعة وتحدُّها هى فى ذلك كالعين التى ترى الطبيعة لتصفها باللغة — وما اللغة فى الحقيقة الا نظر عقلى بل هى الفاظ النظر — وما العين من الطبيعة إلا كالمرآة التي تقابلك بالشيء كما هو لتفهمه أنت كما تريد .

فلفظ (الجمال) مما يؤثر في النفوس وقد يصحُّ أن يكون وصفاً تامًّا لشيء معيَّن كجمال الحسناء فان العين تعرِّفها بدياً بأوصافها ثم يعرِّفها القلبُ بمعانيها ثم يعرِّفها اللسانُ

فيقول إنها جميلة فتلبسها اللفظة لاتضيق عنها ولا تَقْصُر، لان فيها مرُونةَ النظر والإحساسِ معاً . ولكن ذلك اللفظَ بعينه لايلبس الطبيعةَ ولا يصف للنفس جمالها بل يكون منه كقطرة الماء فى البحر تجري فيه ويجري بها وليست من صفته ولا تكوينه في شيء الا في القياس المنطقى واهْونْ بالانسان ومنطقِهِ في حقائق الطبيعة .

ومن البليَّة — ولا بليةَ مثلها — أن الانسان لاينفكُّ يحمل في رأسه فكراً مادياً هو حقيقةُ عيشه فى هذه الدنيا فاذا عَرَضَ له شيء من جمال الطبيعة أسرع هذا الفكر المُبتذَلُ فملأ العينَ وأطلَّ منها فلا تنفُذ صفة من صفات الجمال الطبيعى الا بسلطان منه. فيرى هذا الانسان الشيءَ الجميلَ وكأنه يحدِّث عنه نفسَه الخرساء بأصابع الاعمى الذي يتعرف الاشياء بلمسها . وعلى مقدار مافي الانسان من هذا الفكر القبيح يكون مقدار قبح الطبيعة الجميلة في عينيه وكأيِّ من رجل يمرُّ بين الرياض والبساتين التى هى غَزَلُ

الأرض ولا يقدّر مافيها من الجمال الا بمقادير أثمانها ... وآخرَ يرتقى الجبلَ الوَعر الأشمَّ الذى هو حكمةُ الشعر الطبيعى ولا يَعيبه الا بأوعاره وأحجاره التى لا تُلائم دَعَتَه ورَفاهته وان كانت هى فى نفسها محاسنَ الجبل وثالثٍ يرى البحر الذي هو فكر الطبيعة السيَّال فيفرَقُ حتى كأنه يرى الموت يتدحرج فى أمواجه ليختطفه من الساحل . وهكذا ترى الفكر المادىَّ يُلبس كل شىء بذْلةً من بذل المَصانع والحوانيت أو كَفناً من أكفان القبور أو ثوباً من أثواب الحِداد . وأَحسبُ أن التاجر المُفْلِسَ اذا تأمل فِى أوراق الوردة الناضرة التي تشبه أن تكون تاريخَ ساعة خجَل فى خد العذراء الفاتنة فانه لا يرى فيها الا ارقام دفاتره التى هى تاريخُ النكباتِ والخراب ... !

فمن اين يجتلى الانسان جمال الطبيعة وأنَّى له ذلك وقد مسخها هذا المسخ كلَّه ولم يأخذها من يد الله كما وضعها

ولكن تناولها من فكره كما صنعها . فجاءه بها من ناحية همومه ، وكأنها همٌّ جديد أو ذكرى همٍّ قديم ؟

اذا اردت . أيها الانسان ، أن ترى جمال شيء من الطبيعة فاجعل عينيك أقربَ اليه من فكرك بل انزع فكرك هذا الا الخفيفَ منه كما تَنْضو ثيابك اذا طلبتَ السباحةَ في اليمّ ، والا الطاهرَ منه كما تخلع نعليك اذا أردت الصلاةَ فى المسجد والا الصافىَ منه كما تطرح شُغلَ قلبك اذا وقفتَ بين يدى الله . فان انتَ سبحت بثيابك فانما تمثل الغرقَ . وان دخلت المسجد بنعليك النَّجستين فانما تمثّل الإلحاد ، وان واجهت ربَك وانت مشغول بنفسك عنه فانما تمثل نفاقَ الشيطان ، وان نظرت الى الطبيعة من فكرك المادىّ فانما تمثل العمى الطبيعي ...

أين الانسان الذى يرى فى كل شىء من الطبيعة أشعة تبتسم كأنها تُحيّيه فيبتسم لها كأنه يرد التحية . فما ان يزال

دهرَه مضيئاً كذلك بأشعة ابتسامه وان غمرته ظلماتُ الدنيا كما لاتزال الحُباحِبُ مشعلة بنارها الالهيه وهي في حلك الظلام ؟

اين عاشقُ الطبيعة بين هؤلاء الناس . أين ينبوعُ الضياء الحي الذي تراه لِسعَةِ نفسه وترامى ابتسامه متلألئا في طرَفَيَ السماء والارض كأنه منفجر منهما جميعاً . يأخذ من الله فيبتسم ويأخذ من الناس فيبتسم ، ويتناول كل شيء فيستشعر منه ترنح الطرب كأن فيه بعض الرجفات[١] الكهربائية التي تحدثها نارُ الفجر الشمالي الجميلة على ما يصفها الطبيعيون .

أين الانسانُ الذي لاتنحدر من أذاته دمعةُ عينٍ فيكونُ ابتساماً في أفواه الناس كيفما طاع عليهم لان الطبيعة كلها ابتسامٌ في فه . ويراه المُبتئِسُ حليفُ الحزن الأحمق الذي لم يُفِدْ من علم الحزن الا فلسفةَ الحماقة — يراه

(١) أي الاهتزازات

كأنه لإشراقه وانبساطه وترفعه ظلُّ مَلَك يتنقل على الأرض بتنقل هذا المَلك في السماء . ويتوهمه لا يحزنُ ولا يبكي حتى كأن طينته التي خلق منها جُبلت من النور الممزوج بدموع الندى الخالد فلم تعُدِ السماء تُسبِّب لها من حوادث الدهر دمعة لأن فيها دموعها السماوية . ولا يدرى المبتئسُ المُظْلِمُ فيلسوفُ الحزن الأحمق أن ذلك الرجلَ الذى يحسبه ظلَّ ملك انما هو انسانٌ يحزن ويبكي كسائر الناس وربما ضاق فانفجر باكياً ولكن بكاءه معان من التسليم لله تقطرت فى بعض ابتساماته كما تنبثق دموع الفرح من علبة السرور .

والمرء اذا استطاع أن يتحد بقضاء الله وقدره فلا يتسخَّط أحدهما ولا يتبرم بأمر الله فقد استطاع بذلك أن يبتسم الابتسام الالهىَّ الذى يكون علامة نبوَّته الانسانية فى هذه الطبيعة .

إن الرجل من علماء الفلك حين يجدُّ في تعرف أسرار السماء واستكشاف آثار الله منها يرى نفسه كأنه يعيش فى الأزل الذى لافناء له وكأن فى حياته بصيصاً من أضواء النجوم يصله مرصده فلك الكوكب نفسه . وكذلك يرى عالم الجمال الطبيعي الذى تهبه الطبيعة حاسةً سادسة من الابتسام أنه يعيش في ربيع دائم كأنما هو زهرة تغتذى بنور السماء فلا تبرح ناضرةً مابقيت فى السماء لُمعةُ نور . وهذا رجل قد بذل مقادته لله طائعاً وتوكّل عليه راغباً فترى تسليمه لله قد جعله الله فيه قوة لينّة كطبيعة اللجةّ التى تصدم كل شيء ولا يكسرها شيء لانه ليس قوامُها من الصلابة الماديّة التى تنكسر وانما شدتها من اجتماعها واندفاعها كصلابة الثقة التى تكون من اندفاع العقل بالارادة القوية وآيةُ ذلك انه اذا رفع اليك عينه رأيت فيها نظرةً مستطيلة كأنها آتية من السماء وترى لها عليك سلطانا كأنها نفس

قوية لا نظرةٌ ضعيفة إذ تنبعث من نفسه النقية الى عينه الصافية فلا يعترضها الا القلبُ المطمئن الضاحكُ الذي هو في جسم عالم الجمال كالطفل الجميل في بيت السعداء تأتى به السعادةُ مرةً ويأتى هو بها في كل مرة . وتلك النظرة انما هى نُبوغٌ في بعض العيون كما أن في العقول نبوغاً بَيْدَ أن الطبيعة لا تظفر بها الا في النَّدْرة كما يظفر الزمن بجبابرة العقول الذين ينصبهم حدوداً للتاريخ الانسانى.[1] . فربما غَبَرَت الاجيالُ المتطاولة مجنونةً بهذا العارض الزمنى حتى تصيب لها عقلاً من عقول التاريخ . وربما غبرت الطبيعة أجيالاً متطاولة وهى تشكو عمى الناس عن جمالها حتى تأنَسَ في أحدهم عيناً من عيون الجمال .

ولقد يحسب الاجلافُ من غِلاظ الاكباد أن

(١) نوابغ الارض لا يكونون الا نهاية لتاريخ قديم او بداية تاريخ جديد

الطبيعة مُبتَذَلة ويجدون لها غلظةً في أنفسهم كأنهم ينظرون اليها من أكبادهم وكأن ظلالهم لَبِسَت كل شيء فيها فخيمًا ! نكفوا الا يرون الا طَيفاً من الموت تَنفِر في وجهه ظنونُ الفزَع . واذا لفتّهم الى الجمال الرائع لفتوك منه الى قبح يعرفونه ولا تعرفه لانك تعتبر شكل الصفة الجميلة وهم يعتبرون شكل المادة كأنهم يريدون أن يَنْشَقُوا ريح الزهرة من طينها . وكأن الاشياء الجميلة عندهم ألفاظ من لغو الكلام تتألف من الحروف التي تدل بتركيبها على المعاني ولكن لا معنى لحروفها تلك ، إذ هي مؤلفة على نَسَقٍ غير الذى يعهدونه من نَسَق الصناعة المادية . فياوَيْحَ هؤلاء وأَوْلَى لهم ثم أَوْلَى [1] أيريدون أن يستعين الله بقوم من أهل الحرف والصناعات على إصلاح ما خلق وتنسيق ما ابتدع ليجدوا فيه الجمال الذى يصلح لأوهامهم ، ويكافئ بمعانيه مقاديرَ أفهامهم ؟

---

(١) كلمة تقال فى الدعاء على المرء

لِتنطفيء الشمسُ إذن كلما رَمِدت عين إنسان. وليسدل الليلُ ثانيةً كلما اراد فاسق أن يتلصص في مَشْرق الضحى. ولينهمِر الغيث كلما جفت لَهَاةٌ من الظمأ فى الصحراء. وليكن كل نهار على ما تشاءه البلد الرَّعْناء يطلُع بالصباح عليها ربيعاً وينقلب في الظَّهيرة شتاءً ويَحُول فى الأُصيل خريفاً ويرجع فى العشيَّة صيفا وان انقرض الناس بهذه الحياة الذَّريعة كأنهم يوم يَرَونها لم يلبثوا الا عشيَّةً أو ضحاها.

وَيْحكم أيها القوم ألا يمكن أن تكون أذواقكم سقيمة قبل أن يكون لكم هذا السقم فى الطبيعة؟ وليت شعرى ما أمرُكم والانحدارَ فاذا كنتم فى الأسفل ثَلَجتم بذلك [1] ورأيتم أنه لا أسفلَ منه إذ ليس لكم بعده منْحَدَر فجعلتموه فى نفسه مرتقى ولم ترفعوا أبصاركم الى الأعلي

(١) يقال ثلج صدره اذا قر وانشرح ووجد برد اليقين والرضا

لستيقنوا انكم في أسفل سافلين وأن سبيلكم الصعود لا ما أنتم فيه من أمركم :

ليس جمال الطبيعة ارادةً ولا شهوة وان هذه الساعة الفلكيةَ الكبرى (السماء) لا تقدم الوقتَ ولا تؤخره من أجلنا فانه لا ينتهي اليها من هذا العالم كله الا الألحاظ . ولو اجتمع أهل الارض في صَعيد واحد وصوّبوا الحاظهم جميعاً الى ذَرَّة من الهَبَاء ما تحركت الذرة ولا قدمها ذلك ولا أخرها .

ومصادفات الأقدار المضطربةُ التى لا تأخذ من الناس في ناحية معينَّة بل تتاح للسعداء والأشقياء جميعاً من عالم المجهول بسبب مجهول فى وقتٍ مجهول . انما هى مصادفات فى وهم ذلك الانسان الذى لا يريد أن يرتقب من الغيب حقيقة محزنة كما ينتظر منه النعمة السابغة . وهى فى ذاتها حقائق ثابتة تجرى سواء على سنن مطرد . ولما كان الانسان

لا يرجوها الا خائفاً ولا يخاف منها الا راجياً فهو بطبيعته يصبغها صبغة من الحزن مادامت في غيبها حتى تقع . فلا يجعل هذا الانسان وهمه قاعدة للحقيقة ولا يرين أن حقائق الجمال الطبيعي مما يكون طِباقا لأوهام كل نفس فان ذلك تغيير للنفس لا للطبيعة

وعندي أنه لا فرق بين المُلْحِد الكَفُور الذى لا يحسب حقيقةَ الموت الا موتَ الحقيقة فيظلّ في قياس وهمه عائشاً ماعاش كأنه بَدَنٌ ميتٌ لا نفْس فيه وبين ذلك الجِلْف الذي لا يدرك أسرار الجمال الطبيعي فتظل هذه الطبيعة في قياس وهمه بالغةً ما بلغت من الحسن كأنها دينار زائف جديد يُعْجِبُ من رونقه ويُعْجَبُ من كساده.

الخادمَ يفزع من غضب سيده اذا صاح به الصيحةَ فيُستَطَار لها ولكن المطمئن المفكّر اذا دارت في مسمعه هذه الصيحة أصغى منها لنغمة موسيقية تلبس منها نفسياً

خاصاً لا جمالَ له الا فى الغضب . فاطمئن أيها الانسان قبل أن تستطلع جمال الطبيعة وتأملها بالعين التي لم تستحِل من فكرك المادىّ الى ذاكرة فليس فيها الا النظر البحتُ تصبُّه النفس من شعاعها فانك حينئذ تشهد الطبيعة كلها فى نفسك على النحو الذى يُريك هذه السماءَ كلَّها فى النهر الصافي . وتُحِسُّ من السرور والابتهاج والعظمة كأن هذا الفكر الالهى الكبير الذى نسميه الطبيعة قد شملك أو اشتملتَ عليه فيُوحى اليك انك مخلوق لغرض أسمى من تلويث الأرض بفضَلات أمعائك ... ومُناوأةِ الناس فيما لا حقيقةَ له الا ايجادُ هذه الفضَلات وإخراجُها[1] وان كانت هذه الحقيقةُ القذِرةُ من كثرة مايسترها الانسان به من الاسباب المختلفة كالفضلات نفسها فى جوف هذا الجسم الحى .

---

(١) كناية عن أسباب العيش

حينئذ وقد فاض الجمال على نفسك ترى أنك أنت أصبحت قطعةً من هذا الجمال وأنه لم يكن يحول بينك وبين الامتزاج به الا نفسُكَ التى غيرتَّها أو هامُكَ حتى لم تعُدْ نفساً من صنعة الله بل من صنعتك وصنعة الحوادث وحتى صارت كأنها كتلة شر تَفْضُلُ الحيوانَ الأعجم (١) بالحيلة العاقلة ويفضلها بالحول الطائل فيما عدا ذلك مما هو من طبع النفس الحيوانية

فلولا النفوسُ التى تدرك قيمة الجمال ما وُجدت على الارض نفوس تدرك قيمةَ الخير ، وهل هذا الخير الا بعضُ جمال النفس ؟

لله أنتِ أيتها الطبيعةُ الجميلة ولله جمالُك الفتّانُ الذى يترك من حسنه بقيةً فى كل عين تُحدّق اليه فتجعل كل شيء تصادفه جميلاً كما يُثبّت المرء عينه فى ساطع من النور

---

(١) الانسان حيوان ناطق وغيره من الحيوان أعجم

هُنيهةً ثم يلتفت يَمْنَةً ويَسْرةً فاذا كل شيء فيه شعاعٌ من ذلك النور .

ولله ابتسامُكِ الذى ترتوي منه النفوس ويُخلَق منه الحب والخير وأراه فى كل زهرة تفوح ، وفى كل نجم يلوح ، وفى هذا القمر الذى يتصبى الروحَ كأنه طَلعةُ حبيبة الروح ، ثم أراه في غير ذلك من صفات الجمال التي تفيض عليها هذه النعمة السماوية لتنطق منها بابلغ ما تفهمه النفوس من المعانى كما تنطق الحسناء حين تبتسم وهى لم تتكلم .

ولكن واهاً أيها القمر واهاً ان لهذا الابتسام رُوحاً هى الخالصُ النقيُّ منه بل الذى لا يقالُ فى غيره خالصٌ أو نقي . فاذا أردتَ أن تشهد روحَ الابتسام يتلألأُ فى غُرتك فانظر الى تلك التى لم تلبس من حريرك الأَبيض

غانيةٌ أجملُ منها فى ليلة من ليالى الحب وتأمل بربك أيها القمرُ كيف تتحرك بروح الابتسام فى شفتيها الرقيقتين حياةُ الهوى .

الفصل السابع

ذلك ابتسام الطبيعة بالؤلؤة ثغرها التى يسمونها القمر وذلك جمالها الفتان الذى خلقت المرأة لتصفه وتدل عليه فلها بها الناس وسحرت أعينهم حتى لم ينظروا اليه واليها، الا على أنه مخلوق ليصفها ويدل عليها، فتصغر الطبيعة ماتصغر عند بعضهم وتكبر ماتكبر عند الآخرين ولا تكون فى الحالين اصغر ولا أكبر من امرأة جميلة.

وأى أمر غمة[١] لا يتجه للرأى فيه كجمال المرأة الذي هو جنة الارض ونارها فمن أجله وجدت الديانات والشرائع والفضائل ومن أجله وجد الخارجون عليها والفاسقون عنها؛ ومن المعضلات النفسية الممتنعة على

(١) أى مبهم لا وجه لليقين فيه

الانسان والوارثة منه[١] معرفةُ العاشق المستهام صحةَ الرأى فيما اذا كان الجمال دليلاً على قوة الخالق أو دليلاً على ضعف المخلوق .

ولو سالتَ تاريخ النفس الإنسانية عن كل أمر عسير مُشكِل ثم سألتها عما هى المراة الجميلة ؛ لأصبت لكل سؤال جواباً قد يَحْسُن السكوت عليه ولو تسامُحاً الاجوابَ هذا السؤال فان المرأة الجميلة هى ما يفهمه كل انسان منها بنفسه لأن الجمال المتسلطَ بطبعه والحبَّ الخاضعَ بطبعه قد جعلاها في الطبيعة تعريفَ نفسها .

ولا شيء أقوى من الجمال والحب معاً الا دموعُ هذه الجميلةِ بمرأى مُحبها فان كل مافى الطبيعة الانسانية من حَنَان ورضى وحب وعبادة وعقل وجنون ونحوِها مما تكسوه

---

(١) أى الباقية مع الانسان الى فنائه وكاف من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أمتعنى بسمعي وبصرى واجعلهما الوارث منى »

ألفاظ اللسان بحروفها ونَبَضاتُ القلب بمعانيها — لو ذاب لما قطرت منه الا تلك الدموعُ التي تنحدر كأنها كلمات سَلِسَةٌ تفسّر لعين العاشق معنى روحه تفسيراً صامتاً تجرى فيه احياناً نظراتٌ مُنفتِرةٌ هي كلُّ ما في تعبير الارواح من البلاغة .

فليت شعرى هل تستروحُ الطبيعةُ الجميلة كذلك الى الدموع اذا كانت هذه الدموع من أقوى ما في طبيعة الجمال ؟

هل تبكي الطبيعة أيها القمر فتكون انت في ديباج السماء كأنك دمعة في مِنديل الطبيعة لم تجفَّ بعد وقد بدأ فيها الجفاف (١) ؟

أترُى الطبيعةَ باكيةً وهي تلك التي ترسل بعضَ ضَحِكِها دموعاً تتندّى بها أجفانُ العيون النَّجلاء التي تجعل

---

(١) اشارة الى المحو الذي يري في القمر لانه يشبه جفافاً قد أخذ منه

الرجالَ العظامَ صغاراً ، وهي عيونُ النساء والأطفال لتبقى الطبيعةُ وحدها منفردةً بالعَظَمة الرائعة التي لا يُداخِلُها الغرورَ بها ولا تداخلُ الضحكَ منها ؛

إني أرى الذين لا يعرفون جمالَ الطبيعة ولا يفقهون حديثها يتخيلونها أبداً باكية لأنهم من لواعج الهموم بحيث صارت الدموعُ أسرعَ الى أعينهم من الابتسام الى افواههم وقد أبوا على العيون الا أن تمتزج فيها الروحُ بالمادة فجعلوا أكثر عملها البكاء إما بالدمع الذليل وإما باللحظ المستكين الذي يكادَ يدمع من ذِلَّته . أما الأفواه فحسبُها من صناعة العيش فى أكثر من تراهم في الأرض مضغُ الطعام ومضغُ الكلام فهي قليلاً ما تبتسم وكثيراً ما يكون الابتسام فيها شنعةً فلا ترى الا أفواهاً قد جلِعَتْ[1] كأن القلب

---

(١) جلع الفم اذا صار بحيث لا تنضم شفتاه على الاسنان وتلك حالة من صفة الاشمئزاز

يتهيـأ ليتفلَ منها على وجوه أولئك الاصدقاء الذين يدّعون الصداقة بوجوههم الكاذبة .

وقد أحسبُ في أصل البكاء أن روح الانسان لا تزال تتأذى أحياناً مما يُطيف بها من أدران المادة حتى اذا أرادت أن تُنحّي ذلك عنها اغتسلت فى باطنه بنور يَنْبَجِسُ لها من القلب ثم ينحدر عنها الى العين فلا يُخالط الجفنَ حتى تبتدر اليه الدموعُ فترسلَه وكأنه لما فيه من الحياة عاطفة قلبية أسرفَ عليها الهمُّ في ضغطه فذابت . وقد يستطير ذلك النورُ فى الابتسام فلا يذهب الى العين بل يسترسل فى طريق الدعاء والكَلِم الطيّب من الفم ويكون في الشفاه معنى البكاء كما هو فى الاجفان البكاء بمعناه

ولكن ما بالُ هذه الدموع القذرة التي أصبحت رَقاعةً أو صِناعةً فى الاعين وهل هى نور أو مادة سائلة تجرى من القلب الخبيث كلما نكبَهُ أمر فانقلب فهَراق[1]

(١) هراق وأراق بمعنى

مافيه ؛ أننا لا نعرف من أمرها شيئاً فان الانسان لم يهتد
بعدُ الى علم تحليل الدموع تحليلا نفسياً وما أحسبه سيهتدي .
وهو على أن تاريخه فى الارض مغمورٌ بالدموع كالارض نفسها
ثلاثةُ أرباعها مياه فانه لا يُحسن الى اليوم أن يردَّ العبرات
قبل انهما لها من أعين الباكين والمحزونين إذ ليس إحسانه
من قوة الروح بحيث يَتغَلْغَل فى مسالك هذه العبرات
وما تحليلُ الدموع الادرس لمذاهبها فى النفس وهيهات
ذلك فى عالَم المادة هيهات .

بَيْدَ أنَّا لو ابصرنا الملائكةَ حين تمر على اكثر من
يبكون صناعةً او تصنُّعاً او مُصانعةً لأبصرناها بلا انوف
لان لها قوة التشكُّل فيما تختار من الهيآت وهى تخشى
أن تصعد الى السماء وحَشْوُ آنافها من رائحة ذلك الدمع
الدنئ الذى دَرِنَتْ به الاجفان المُتْرَعَةُ وكاد يكون صديداً
تقيَّحت به جروح العواطف فانفجر .

إبك أيها المحزونُ فانك ستجد من يكفكفُ دموعَك كما وجدت من أرسلها ولكنك لا تجد من يتداركها ويردِفك منها خيراً لان اهل الخير لا يعرفون حزنك — إن عرفوه — حتى تبكي بالعين الثرَّةِ وحتى تتوسل اليهم بالطرف المُغرَورِق كالطبيب لا يعرف مرضك فى صحتك ولكنه يبلو مرضَك فيعرف كيف كنت وقد يعرف كيف تكون .

قيل لفيلسوف أملَق حتى ساء عليه أثرُ الفقر : من يدفنك اذا مت ؛ فقال من يُؤْذيه نتنُ جيفتي ... وكذلك لا يدفن دموعَك الا من يؤذيه منظرها من أهل النفوس الرقيقة فانهم لا يحتملون أن يروا من عينك جيفة همٍّ تسيل بها وتترَى . واذا أصبتَ في الناس من لم يتسبَّب لإرسال دمعة من عين انسان أصبتَ فيه من يهتاجهُ منظر الدمعة فى عين الانسان .

إن الأطفال يحبون فِطرةً أن يعبثوا بالماء ويتغامسوا فيه فلا أنكر على الرجال محبتهم أن يعبثوا بالدموع . ولكني أستنكر الانسان يجعل قلبه شاطئاً لأرجلهم إذ يخوضون فيه خوضاً ولا يجعله لُجةً تجيشُ على أعماقٍ من نفسه وعواطفِه فلا ينطوي لها شيء الا طوته ولا يدافعها شيء الادفعته . ولستُ أصدّق الضعفاء الذين يزعمون ان احداً من الناس لا يُطيق أن يجعل على ما يُبتلى به من مجاهدة نفسه عنصراً من عناصر الحياة فاني لأرى بعينيّ ولا أرى أحداً الا وجدته يتحمل أكثر الناس لضرورات الحياة الجسمية ولو هو رغب فى الحياة النفسية لقضت عليه ضرورتها ان يحمل من نفسه ولو كارهاً بعض ما يحمله من الناس كارهاً أو راضياً . والمرء حين يَضِلُّ زمامُ النفس من يده انما يضل طريقه الذى اختطه فى الحياة وتعتسف به النفسُ طُرُقَ الآخرين فلا يزال فيها تابعاً أو مطروداً وهما

خُطّتَا نُكرٍ خيرهما وشرّها على الحُرسواسية .

وليت شعرى ماهى الهموم ؟ ان الانسان يفسر هذه الكلمة المفردةَ بمجموع ما حفظ من تاريخ مصائبه ويرى انه لم يفرغ من الشرح بعدُ ولم يكشف عن دقائق المعنى وأعيا أجمل مَن وصفه ماوَسعه فكأنه يفسر حقيقة الحياة التي تستنفد الكلام كلَّه ويكون بين خطاءٍ صُراح وصواب ممزوجٍ ثم تبقى الكلمة الصحيحةُ عند الله لايكشف عنها للانسان لئلا يغشاه من سر الالوهية فَينهتكَ حجاب قلبه (١)

واهاً لكِ أيتها الحقيقة الانسانية : أين أنت من الانسان وأين هو منك ؟

ومابال هذه الاوهام التي يعتزِم لها الانسانُ المُضيَّ في فضائها كأنه منطلق ثم لايكون أمره وأمرها الا كالفأرة حين يُرسلها الهر الخبيث تحت أشعة عينيه المتسعّرتين من

---

(١) كناية عن الموت فجأة

الجوع فتنطلق المسكينة في فضاء .. ولكنه محاط من كل جهة بالاظافر الحادة

أيتها الحقيقة لا يظفر بك الا سعداء الفطرة وما الطبيعة كلها الا إيمان بك ودليل عليك فلو خلص الانسان من وهمه لخلص من همه ولعرف كيف يقدر الحزن بسببه الحقيقي لا بالآمال المتوهمة التي زالت بوقوعه . فان تقدير المصيبة بالأمل الذي كان يرجى لو لم تقع أمر لا يحتمل حداً بل لا يزال يتسع من ظن الى ظن حتى يهيج السخط في نفس الحزين والسخط مع المصيبة مصيبة ثانية .

ولو كان المقامر يحزن على مقدار ما أضاعه دون المقادير الوافرة التي قامر عليها وكان يرجو ان يفوز بها لما عاد امرؤ قط الى المقامرة بعد الخسارة الأولى .   وكذلك لو كان الانسان يهتم للمصيبة على قدرها في نفسها لا بمقدارها في نفسه لذهب بها وقتها لأن الوقت يسير بكل شيء

تدفعه فيه ولكانت هذه المصائبُ فى تاريخ الانسان كأنها عُطاسٌ يُزعج قليلا ثم يُعقِب انتهاضاً من عثرة الرأس وراحة .

وما إن يزال الوهم يخيل للانسان ان الوقت ثابت بالمصيبة التي نزلت به كأنها تغتذي من عمره وكأن الصبر يعاف ان يتغذى من عمرها فلا تبرح تُمارسه وتشادّه وتجد به وتتلعّب كأنما طَرَحَ عنقَه منها فى غُل يملك رقبتَه بالأسر الذي لا فِكاكَ له وبذا يجمع المسكينُ على نفسه الحقيقة التى تحاول تركه فلا تستطيع والاوهامَ التى يحاول تركها فلا يطيق . ولو ثبت الوقتُ بشيء هذا الثبات لهلك سعداء الناس قبل الاشقياء لان الراحة التي لا تمدُّ فى حبلها الألم كالألم الذى لا تمدُّ فى حبله الراحة[1] . وما الآلام الا

---

(١) يريد الراحة الطويلة التى لا يدفع فيها الالم فكانها راحة الى غير مدى .

رياضة نفسية تشتدُّ بها النفوسُ وَصَلُبَ فلا تهدها أثقال الحياة التي لا يضطلع بها الا ذو المرَّةِ السَّوِي (١)

ولولا هذه الآلام لأقفرت الارض لان الانسان الذى لايتألم ليس إنساناً أرضياً بل ينبغى له أن ترفعه الملائكةَ وتُلْوِىَ به في جوف السماء ثم تكون مدةُ عمره فى الارض مسيرةَ مابين الدنيا والآخرة على أجنحة الملائكة .

ويُخلَق ويموت كما تَخلق ذُبابة آذار الخالية التى يزعم الشعراء انها تولد اذا متعَ الضحى فلا تزال تطنُّ فى الروض وهى لاتجد مدَّصوتها (٢) الا أزهاراً وألواناً أريجاً ونسيماً وتحمل وتضع وهى لاتنفك تتنفس الحاناً ثم تطلع عليها شمس الغد بالموت كما طلعت فى الامس بالحياة ولا يمتد

---

(١) القوي الصحيح الاعضاء .

(٢) أي لاتجد فيما تصادفه الى منتهى ما يبلغه صوتها .

الضحى حتى تتخذ من بعض الازهار كفناً وتموت وهى تتغنى ثم تلوح في شعاع الشمس كأنها نقطة سوداء قطرت من مداد الموت على صفحة من ورق الازهار لكي تذكر بها روح الربيع ان ليس فى الارض خلود .

ولا يحسبن الانسانُ انه المستبد بالارض يقوم عليها بنظامه ويبرأ منها فان الارض تقوم عليه من قبل ذلك بنظامها بل هو نفسه مُعْنىً من هذا النظام الذى لا ترخُّص فيه وانما يمضي على الانسان وغير الانسان بعزيمة واحدة وفيه الألم والراحةُ جميعاً .

ومهما نعم المرء فلن يبلغ مبلغ الزهرة النضرة العطرة التى تجتمع اوراقها وتتماسك مدة بقوة الحياة العطرية ثم تلم بها نسمة تستميت في تخافقها وتجيئها وهى من الضعف كأنها صدى قبلة الحسناء المذعورة فتنثر أوراقها وتهدم هذه البنية الملونة

كما تنهدم لذاتُ الحركة الضعيفة من جفن النائم ساعة يستفيق .

والحياة الارضيةُ في طبيعتها غليظةٌ جافية مستحكمة لو تُركَ لها الانسانُ كما هي لأنشأته خلقاً أرضياً بحتاً ولكنّ الله جعل فيها مواضعَ رقيقةً تشفُّ عن السماء وما وراءها الى مصدر القوة الأزلي وهذه المواضعُ هي الآلام فهي التي يرفع منها الانسان يده الى السماء بضراعة انسانية متبرئاً من قوته مقِرّاً بضَعفه وهي كذلك التي يرسل منها الانسان نظره الى الارض برحمة سماوية تنفذُ الى قلبه بالمعاني الجمّة من شقاء الناس وبأساء الحياة . فلا يستروحُ هذا الانسانُ من ألمه الا وقد اكسبه الالم فضلَ الانسانية وبرّ الفضيلة وصحةَ الإيمان وقوةَ النفس وإنّ مَرَضَ يوم واحد تتوجّه فيه النفس الى الله وتعرف كيف تتنزه عن دنايا الارض وشهواتها لهو أجدى لها وأردُّ عليها بفضيلة الانسانية من قطع دهر في دراسة كل مُمتِع من كتُب الفلسفة .

وبئس لعَمْرُ الله الرجلُ يكون فى صرعته وما فيه الا نَفَسٌ وأنت لا تدرى أيهما أضعف ؛ أهـذا النفَسُ الذى يتعثر في صدره أم ذلك الجسمُ الذي يَتَنَغَّشُ كفِراخ الطير (١). ثم تراه متى أحس القوةَ قد ثار كما يثور الوحشُ من ضَجعته وكان فى ألمه أشـدَّ حنقاً وكلما تمادى به الألم سخط واستحمق كما يكون العاجز الموتورُ الذي يأكل انتقامُه من نفسه ولا يزال يَشْرَهُ اليها مابقي الرجل عاجزا .

فهذا وأمثاله ممن تشفُّ لهم السماء موعظـة واعتباراً . وهم يَتَبَخَّصُون (٢) لها تعجباً وإنكاراً ، انما يسخطون على ربهم سخطاً لا يشبهه الا مايكون من حَنَق الصبيان اذا فُضِّل

(١) أي لا يتحرك الا حركة ضعيفة وذلك معنى التنغش

(٢) البخص بتحريك الخاء لحم تحت الجفن الاسفل يظهر عند تحديق الناظر اذا أنكر شيئاً وبالغ في انكاره . ولم نر كلمة أليق عما أردناه في هـذا الموضع من هذه اللفظة الخشنة لانها تصور وجوه كالحة بألوان مثلها كالحة . . . .

أحدهم عليهم فانقلبوا ساخطين على الافضل ومَن فضَّله جميعاً يرون سخطهم كأنه تفضيل لأنفسهم ... وهو ان لم يكن توقُّحاً ونذالة فليس بدونهما .

وهذه الطائفة من الملحدين ومن لايُلحِد ولكنه يؤمن بلا إيمان ... انما هم أنفسهم بعضُ آلام الانسانية فليس بِدْعاً ان يكون فى آلامهم مايقتدح هذه الحقيقةَ النارية فيهم والافكيف يُؤلمون الانسانية اذن ؛ على ان اكثر الناس لايدركون هذه الحقيقةَ فيصبُّون عليهم من النسيان والإهمال مايصبُّ الغاسلُ على الميت من الماء ليرسل معه بقيةَ طهارته الى الآخرة . ولو هم أدركوها لرأوا في هذه الثورة الانسانية مظهراً عجيباً من حكمة الله ولرأوا ان كل شئ يتألم حتى الديانات والفضائل فأنها تتألم بسخط هؤلاء وجحودهم .

وليست كل الهموم التي تصيب الانسانَ مما يلوِي بها القدَرُ

عليه فان من ذلك سيئاتٍ يجنيها الانسانُ على نفسه بسوء الخوف من الله واتهامِ رحمته وقدرته كالتوقع لما لم يقع والحذرِ مما لا يُوقن بوقوعه ومعاجلةِ المستقبل والاهتمامِ للمستحيل أو لشِبْه المستحيل ثم المصيبة الآكلة التى لا تبقى على النفس الا أسوأ ما فيها لانها محاولةٌ استخدام القضاء وتصريفِ القدر على غير مايريده الله وهى الحسد .

فهذا وما أشبهه إنما هو من مصائب العقل الذي يحاول الملحدون تسميته إله الارض فلا يكون قضاؤه على صاحبه الا ماترى .

واعتبر ذلك بان هذه المصائب لا تكون على أشدها نجيعة وألما الا فى اقوى الناس عقلا وأضعفهم ايمانا مع ان المؤمن الساذج الذى يكاد يعدُّ فى رأى العقلاء .. حيوانا يبيع نفسه ويشترى لها مشتريا ، ! لا يعتريه شيءٌ منها بل هو فى أمن من جميعها وكأن حوله من قلبه سُورا مضروبا

على الحياة باطنه فيه الرحمة وان كان ظاهره من قبله العذاب . وهذا المؤمن يعرف بفطرته السليمة تلك الحقيقة الناصعة التى يجهلها اكبر الفلاسفة من الملحدين ويجهلها أكثر العقلاء فلا تكون كل المصائب الانسانية التى يتنافح بها القوم بعضهم بعضاً الا عقاباً عقلياً على هذا الجهل . وتلك الحقيقة هى ان الله لا يمسك عنا فضله الا حين نطلب ما ليس لنا أو ما لسنا له .

ومع ذلك نظل نخادع أنفسنا بالآمال اللذة ونخرج عن الحقيقة ثمناً لوهمها كما يشتري السكير أحلام نفسه بعقله ثم تذهب الاحلام والعقل معاً وتتركه الخمر برذائله وجنونه وأمراضه أصح تفسير لها بين العاقلين

اما المصائب الالهية فان الله يرسلها برحمة فيستلب فيها من الانسان إحساسه أو أكثره ويعطيه أسباب العزاء أو أكثرها ويهيء له من أمره ما يجعله يتلقى المصيبة بروحها

لا بروح النعمة التى أصيب فيها وبذلك لا يشعر انه ضُرب بيد الجَبَّار ولكن بيد الرحيم ولا يكون الا كالذى يُغمض عينيه عند الوَسْنة ثم ينحدر الى الابدية وقد يتحطم فى مَهواتها وما أحس من آلام الموت ونَزْعه أكثرَ من غمضة العين .

وعلى هذه الصفة الرحيمة يفترس الحيوان ماهو أضعف منه فيُستَلَب احساسُ الضعيف حتى لا يدرى ماهو من مُفترسه ولا ما كان فيه مما يصير اليه ثم يَكيدُ بنفسه وكأنه لا يحسُّ أن له نفساً فتزهق روحه كانما أبَت هذه الحياةَ الميتة . وما أحسب هذا ونحوه الا (تخديراً) قبل (العمليات) الالهية فتبارك الله القدوس وَسِع كلَّ شيء رحمة وعلماً .

والانسان لم يكن يوماً مَنْسيّاً من الله ولكنه لا يزال يَنْتَبذ المكانَ القَصيَّ من الظن كأنه يريد أن يكون

منسياً منه فهو يشك في رحمة الله وعنايته كلما راثَ عليه الخير[١] إن عرف ان له رحمة وعناية . وهو يجادل فيهما ويستريب بهما وبالله فى ذاته إن لوى رأسه وركِبَ أثَرَ هواه ضالاً أو مُضِلا . ومايُجديك أيها الأحمق أن تهبط بعض الأودية وتأخذَ في الصيّاح لتستخرج الصَّدَى كأنك أنطقتَ الجماد . . . وانما هو صوتُك رجع اليك لم تزد فيه السماء ولم تنقص منه الأرض ؛ فهما جادلتَ فى الله فانك لا تعدو هذا العبثَ بنفسك ولو أنكرتَ فأنكر الصدى ورَميتَ بالحجة فرمى بها وجِئتَ بالأقاويل فتابعك عليها لم يكن لك من ذلك كله ظهيرٌ ولا نصير على الحقيقة الا كما يكون للممرور يحدِّث نفسه ويحسب أن له حلْقين . . .

ويح هؤلاء الناس ألا يرون المصائب والآلام ترُسَل

---

(١) الريث الابطاء

دِفاقاً على الأرض كماء المطر وهى مع ذلك لا تصيب مَن تصيبه ألا قطرة فقطرة كأنه مُكتنَف من رحمة الله بفضاء واسع يجعله كهذه الطيور التى تُرسَل عليها السماء من أقطارها ثم هى مع ذلك تلبث طافيةً على الهواء كأنها الأمواج التى يجيش بها البحر أبداً ولا تغرق ولو هى كانت فى الأرض لاغرقتها بَصْقَةٌ من إناء مترع . أو ليس فى ذلك ما يُردِف الانسانَ شغلاً بنفسه الضعيفة مما يذهب اليه فى الحاده وريته إذ ينتحل شيئاً من الالوهية ليُنكر الالوهية أو ليشكَّ فيها ؛ وهيهات يجادل امرؤ فى الله أو يستريب به أو يتصفَّح على أعماله الا اذا كان يقيس من أمر ذلك على ما فى نفسه كأن فى نفسه مِقياسَ الالوهية والا فهو الغبى الذى لا يسقُطُ على عقله ولو استمر يبحث عنه فى الكتب حتى يُرمى فى جِنازته [١]

---

(١) كأنه أضل عقله فلا يعثر عليه . ويقال رمى فى جنازته أى مات لانه يحمل ويوضع فذلك هو الرمى فيها

أوَلا يستشعر الانسانُ مما تُزلزله مصائبه وآلامه ان روحه تتخطّى مقرّها فى باطنه فكأنه يتزلزل بخُطُواتها . وقد يراها فَصلات عنه حين تنتزى به الآلام المبرّحةُ حتى اذا انتهض من صَرعته ونشط لما ينشط له الأصحّاء رأى كأنه مُقبِل على الدنيا من حُدود الآخرة ؟

وإذا كانت النفس خرساء لاتفهم الا بالحركة والاشارة فما أرى هذه الحركة منها فى الانسان بين المرض والصحة الا كحركة نقضِ الدليل الفاسدِ بالدليل الصحيح في العقل فاذا هو سفِه بعد ذلك نفسه وسفه الحقّ منها وحاول أن يرتبطها من إنكاره وجحوده ومكابرته وعنته بالسلسلة الرّبوض [1] فانه ينقلب مايشاء ملحداً أو فاسقاً أو شيطاناً وتبقى نفسه كما هى على طبيعتها الالهية لان الدين النفسى ليس مايزعمه العالم فى مجادلته ولا الجاهل فى محاولته ولا المؤمنُ فى إقراره وتصلُّبه . ولا

---

(١) أى التي تربض بصاحبها فلا يستطيع فيها الحركة لضخامتها وثقلها ولزوقها به .

الجاحدُ فى إنكاره وتعجبه . وإنما هو قلب الانسان الذى يخفق في العالم والجاهل والمؤمن والجاحد بحركة واحدة كأنه فم يسبح الله بكلمة الحياة .

ياشقاء الانسان ويا ويله اذ يُرسل الله على قلبه شعاع الرحمة والإيمان ويأبى من غلبت عليه شقوته الا إن يضرم من هذا الشعاع الالهى ناراً يُنضج بها غذاء شهواته ويطيبه فلايزال يحتطب لها من كل خبيث جاف حتى تراه كأنه قدر تئزُّ أزيزاً . وكأن في باطنه شظية من جهنم يسطع وهجها في عينيه فلا تقع ألحاظهما على شيء الا رجعت منه بمعنى خبيث وتركت فيه معنى أشد من ذلك خبثاً . ولو زادت هذه النار فى جوفه لخلق منها للناس شيطاناً — ولكنها من رحمة الله بالناس — نار قليلة لاتكفي لشيء أكثر من عمله الشيطانى . . . .

ذلك . فانظر الآن ماذا يترك الشعاع الالهي الذي وصفنا في قلب المؤمن بالله ؟

إنه يجرى فى أحزانه كالماء يتدافع فى مسيله وتراه يطّرد وينعطف ويتمعج لأنه ينساب بالحياة فكأنه يبحث فى جهات نفسه وأنحائها عن كل عاطفة ميتة فلا يترك على جانبى الحياة الا ماترك الماء على عطفيه من خضرة ونضرة وبردوسلام . فيخوض المرء فتن الدنيا ويرتكس فيها وهو مطمئن يحمل فى باطنه سلام الله ومهما تكفأت عليه النوائب وعصفت به الحوادث فانها لاتجد منه الا ظاهراً أمسكه باطنه وباطناً استمسك بيد الله كالسفينة فى البحر تكتب لها السلامة فلا تجرى الا على قبرها ولا تنبعث خطوة الا كانت لها فراراً أو مايشبه الفرار من الموت وكأنها فى ذلك البحر اللجى إنما هى روح الارض أنشأت تهتز وتضطرب .

فلتكن أيها المحزون أكبرَ من همومكَ وأحزانك بالغةً مابلغَت . اذا كان الموت يعدُّ شرفاً لمن مات مدافعاً

عن الحقيقة مهما كانت وفي أي صورة تمثلت. فان البقاء في الحياة يكون أحياناً أعظم شرفاً منه لمن يدافع مصائب هذه الحياة عن ضمير دفلا تستبيحه ولا تزعج الفضائل الانسانية التي أعتصمت به .

واذا اشتبكت أيها المحزون بهذه الآلام فكن قوياً على مصارعها وقد تصرعك مرة اذا بدرت منك غفلة فلا تكن حينئذ جباناً في النهوض كما كنت جباناً في الوقوع . وليست فضيلتك في أن تنزل على حكم كل ضرورة فانك عند حكمها طوعاً وكرهاً ولكن الفضيلة أن تعرف في نزولك من جهة كيف تصعد من جهة أخرى . وما دمت حركة من حركات الفلك فلا تحاول أن تقف به عن مسيره لهوى يعترضك أو تحرفه الى جهة تعن لك فتنة لاشيء ويستمر الفلك سائراً واني رأيت دوامة الماء لاتلتوي عن تيار النهر الا لتفتح لنفسها قبراً فيه .. واذا لم تكن قادراً ان تنال ما تطمع

فيه فتكن قادراً أن لا تطمع فيما قطعت عنك أسباب نيله. فمن غاية القدرة فى الحالتين الرضى . وانت فى اكثر ما تعانى انما تتألم بأوجاع الناس من حيث تؤذى نفسك ولا تغنى عنهم من شيء فانك لا تملك الا نفسك ولا تملك نفسك الا فضائلها وانت على ذلك تجارى بآمالك اقواما من الاغنياء هم أصابع الدنيا في كفيها وقدميها [1]. لا يعرفون الا فلسفة الحس ولا فلسفة لهم الا ان كل حقائق الدنيا لو حللتها الفلسفة او العلوم أو الاديان لا لفتها على كل حالة حقائق ذهبيه .... هكذا اصطلح الناس كأن الله لا يعطى ولا يمنع الا بعد أن يتواضعوا فيما بينهم على ما يسمونه إعطاء او حظاً مما يسمونه منعاً وحرماناً وكأن ليس فى الارض غني عقيم بلغ من الدنيا ومن الكبر ومن العقم جميعاً ثم نظر الى كنوزه العريضة ونظر معها الى طفل يلعب فى بيت رجل فقير ويملؤه بالضحك

---

(١) كناية عن ان فيهم العالي والسفلة

فعرف من هذه الحقيقة الحية مقدارَ ذلك الوهم الميت الذى يسميه الغنى . وكأن ليس في الأرض رجل ذكيّ عبقرى لا يملك الا عقله وهمةَ نفسه وهو مع ذلك لا يسرّه أن تكون له بهما كنوزٌ فدمٍ غبي له من المال و بلادة العقل وصغر النفس مقاديرُ يوازن بعضُها بعضاً . وكأن ليس فى الارض محبٌّ دنفٌ يهوى غادةً فاتنة وقد عرف ماهو الغنى فى اصطلاح القلب كما عرفه الذكي فى اصطلاح العقل وكما عرفه العقيم فى اصطلاح النفس .

ان الطبيب الحكيم لا يجارى العليلَ ولكنه ينظر الى العلة وان الله سبحانه وله العزّة لا يبالي باصطلاح الناس ولكنه ينظر الى مصلحتهم حين يعطى ويمنع فليس فى الارض فقير قط الا عند نفسه ولو اطّلع كل انسان على الغيب لما اختار الا ماهو فيه

وكذلك لا تنسل أيها المسكين المحزون ريش جناحيك

للذين تطير بهما لتنظرلون ماتحته من الجلد فتترك نفسك
بلا إيمان وتدفع قلبك بلا توكل وتسقط آخر الامر لغوامع
هؤلاء الذين لا يرتفعون عن الارض في طيرانهم نحو السماء
الا مقدار مايرفع غبار الأرجل فى طريق السابلة ٠

ويحى كيف ترامت بى شجون الحديث أيها القمر
الضاحك المطروب حتى جعلت غبار الأرض بيني وبينك
بل غبار الارجل في طريق السابلة ؟ لقد شبهت عليَّ هموم
الانسان هذا المحو الاسود الذي يزين جبهتك حتى لحسبته
عاطفة من عواطف الرحمة رسمتها بعض الغصون فى تلك
الجبهة المتهللة كأن السماء تجاوب بها نظرات المحزونين فى
الارض ، فاعترضت هذه النظرات أراها وأخبرها لا علم
علمها فما ألقيت علي حتى صرت هماً متجسما وانتظمت
تلك اللحاظ في قلبي فما هو الاصفحة وماهى فيه الا أبيات

القصيدة الالهية التى ترجمتها بلسانى هذه الترجمة الضعيفة كما يعبر لسانُ المتألم عن أوجاعه ببعض الأنين والزفرات .

وليت شعرى أين أنا من مبلَغ ذلك وهل فى الأرض من يستطيع أن يضع منطقاً للغة القلب الانسانى فيترجم به قصيدة الآلام التي تسيل رقة لان كلماتها كلها (عيون) والتى تنسكب فيها كل قُوى النفس المختلفة كما تتدفق الجراح على نمط واحد بدم واحد ويكون ألم الحب أبلغَ معنى فيها وتكون أنت ايها القمر بضيائك وجمالك وآمال العشاق فيك وابتسامات الحسان لك فلسفةَ الخيال لهذا المعنى اليتيم ؟

ايها القمر ! ان كان في الناس من يظن أن الفلسفة تكون دينَ المستقبل الراقي فانما هى فلسفتك المؤمنة الجميلة التى تجمع بين الايمان وهو الحبُّ السماوى وبين الحب الذى هو الايمان الارضى . وغاية الرقىّ لهذا المستقبل البعيد أن يكون أُفقُ آماله ، ادنى اليك بطهارته وجماله . ومامن

رجل حكيم يحلم بهذه المعيشة السماوية على الارض أو يفكر فيها الا وهو يقرأ تاريخ أحلامه فى سطور أشعتك ويرى هذه الاشعة نفسها كأنها معانى ذلك المستقبل تهبط كل ليلة الى الارض لتعتاد الاقامة فيها ثم لا تلبث ان ترى الناس قد هبوا من مضاجعهم حتى تفر الى السماء مذعورة وتتوارى مع الاحلام كأن الناس تشابهوا عليها وهم نيام فلما رأتهم منبعثين رأت اكثرهم ليسوا من الناس . . !

الفصل الثامن

وكم ناجاك أيها القمر من عاشق قبلى فإنك ما انفصلت عن الارض الا ليجعل الله منك أفقاً لآمال الإنسانية الجميلة. بل أنا لا أحسب عاشقاً من لا يُناجيك ومن لا يأتى بدموعه واحزانه وهواجسه وآماله فينطرح فى هذه اللُّجة التى ترسلها من شعاعك وينغمس فيها ساعة ثم يخرج وكأنه جسم من نور يخفق فى جنبه قلب كالنجم.

ويترك فى نورك بقايا ظلمات نفسه الحزينة تراها السماء فترى بها كيف يكون ظلُّ هذا القلب الانسانى المتألم. ثم تجمع انت هذه البقايا وتُدرجها فى قطعة من شفَق الفجر تُشابه الدَم الذي كانت تغتذى به من الحياة وتدع الزُّهرة الحسناء ترسل عليها نظرةً من نظراتها الفتانة لتعرف أى ثمن من الأنفس والقلوب تُشْتَرى به في الارض ابتسامة كابتسامتها فى السماء

وبعد ذلك تَرُوغ بها من وراء الصباح رَوْغةً ثم تدفنها فى بعض الكواكب المنطفئة التي هى مقبرةُ الابدية فى غَيْب الله .

ولا يزال دأبُ العاشق الحكيم أن يذوب فى شعاعك لكيلا يبقى من نفسه غير المادة التى تذوب في شعاع الجمال فيكون بجملته نفساً روحية تتلقى الحكمة العالية عن النظرات والابتسامات كما تتلقاها عن الآداب والشرائع .

وقد ترى أقواماً ممن يدّعون الحب سَفَهاً وغلظة وإن أحدهم ليذهب فيقذف بنفسه فى ابتسام الجميلات كما ترمى بالحجر فى الماء العذب لا يَعْدُو بطبيعته أن يَستَنقِعَ فيه .

وترى ذلك الجلف لما يعالج من شهوات الحياة كأنه قدر تضطرم آخِرَ النضج وهو لا ينفك يزعم أنه يشعر بالحب وانه مبتلى به ويقول لك حسبك من حب مضضه أشد على النفس من اسعار الجوع ... ثم ترى أضلاعه وقد أحاطت بقلبه كالسياج حول المكان الخرب وهو قلب هدمه الحب حتى سوّاه

بمعدته كما يُسوى الحائطُ المنقض بالأرض ولكن الحب لم ينبه لان القلب لا يبنى على أساس من المعدة وليس فى الرجل أمتن من هذا الاساس .. لا بل ما أحرى ذلك القلب أن يكون معدة ثانية تؤتى غذاءها من سفالته ولؤمه فلا يدخله الطيِّب حتى ينقلب خبيثاً .

ويأتى هذا الرجل ولا يكون الا غنياً - وقد أدل بنفسه وأشرق وجهه كأن فيه كل معانى ذهبه وفضته وان كان هذا الوجه الجلدى كأنه بعض ما خلق من أحذية الرذيلة ... فيريد ان يتسفه الجمال عن ماله وثروته[1] . ويريد ان يشترى الحسناء الجميلة التى خلقت للحب لا للبيع . وكأنه والله رجل جاءت به اللعنة المقعدة ليحملها ويسعى بها فحملها وحمل الخزى معها وألقى عليه الله غضبه من عينى الجميلة التى اشتراها .

اشتراها من فقرها بماله ومن تعاستها بقبحه وكل

---

(١) تسفهه عن ماله اذا خدعه عنه ليستأثر به والجمال اغا من أموال الجمال وكنوزه

تجارة الجمال فى يدي الفقر والتعاسة . واشتراها وانقلب بها وكان لها واسفاً عليها خزانة من حديد حبست فيها اللؤلؤة .

فيا أيها القمر لقد زعموا قديماً أن هذا المحو الذى تراءى به هو عين ثرة وأنها تفيض بقطرات من دموعها فى الغلس على زهرة من أزهار الفجر . وزعموا انه لا يفلح السِّحر الا اذا وفق أهله لدمعة من دموعك يأخذونها من شفتي الزهرة كأنها كلمة القضاء . فأرسل أيها القمر كل ما فى عينك على زهرات فجر الحب لتمتزج بندى هذه العيون الساحرة التى يبكى بها الجمال المحزون فى أسره . وعسى يفلح سحرها فى أولئك البهائم فيمسخهم أناساً (١) يحسون بشعور الجمال الذى يُخلَق فى كل حسناء ليكون حياة لجمالها وجمالا لحياتها فان الله يابى ان يجعل فى الارض أو فى السماء قوة تجعل الحسان الجميلات يشعرن من الغلظة والفظاظة بما يشعر به اولئك البهائم .

---

(١) كأن الانقلاب الى الانسانية يعد مسخاً ...

يا رحمة لهذا الجمال . وجه وضئ الطلعة كأنه السعادة المقبلة يصل إليه دم الشباب من القلب فيتحول فيه الى جمال وفتنة كما تحول قطرات الماء فى غصن الياسمين ثم تتحول فى تلك الزهرة الطاهرة العطرة الى جمال وابتسام . وكأن معانى الحسن التى تتحير فى خديه حقيقة إلهيـة تُطلُّ على النفوس من وراء الشفق .

فيه حاجبان كأنهما تمثيل للأنحناء الخطى فى الهندسة السماوية التى وضع الجمال على قواعدها . يمتدان فما أدرى ما أمثلهما به غير انى لا أظن الفتنة القلبية تمتد مجتمعة الا بمثل هـذا اللطف . وينتهيان الى طرفين دقيقين لا يغمز بهما الاثقبا القلب من جانبيه .

وتحتهما عينـان تنظران والله بروح تكاد تنطق ولا يُفهَم عنها الا كأنها ناطقة . وتضطربان فكأنما يضطرب معهما جـلال السماء إذ يلوح فى صفائهما . وتُغضيان تفترا

ودلالا فكأنما تُلقيان على الروح فترة تحلم فيها من أحلام السماء وتستيقظ . وتدوران بما يشبه الحياة والموت كأنهما الكلمتان الالهيتان كن ويكون فى محجرين واسعين كأنهما فى هذا الجمال منفذ القضاء والقدر .

وخدان تحير فيهما الجمال فوقف يتلفت عن يمين وشمال . وتظن من التهابهما بشعاع الحسن أن العقل الجميل انقسم فيهما الى فكرين يتوقدان ليقتبس منهما الشعراء نار النبوغ التي يضطرم بها العقل والقلب والروح فيصرن جميعاً شعلة واحدة تُضيء بالشاعر على آفاق الحكمة والحب والإيمان . وتراهما أسيلين بارزين فيا لله هل هما ثديان صغيران من الورد يرضعان طفل الحب الذى هو النحلة الالهية فى لذع الارواح واطعامها العسل والمعسول ؟

وبين الخدين أنف جميل تنحدر عليه اللحظات الفاتنة وتلتقي اليه الاشعة الوردية فهو خُلاصةُ الجمال . وتراه بين ذينك الخدين كالانصاف بين القوتين فالنظر اليه واليهما ترجع

الى قلب المحب بالخوف المطمئن الذى لا ينفك يخوفه الحب ويبعثه عليه

ودون ذلك فمٌ أصغرَ من فم الحقيقة كأن فى شفتيه الرقيقتين الحمراوَين دُوحَ الدم . ولقد استدارتا على ثَغرٍ هو الكأس التي يُسكَب فيها حنينُ الروح ممزوجاً بلَهفَة القلب معطَّراً بابتسامات العواطف الشريفة أزهرت في ربع الغرام ، ويُرشَفُ كل ذلك في قبلة لا يراها العاشق السعيد الا روحاً من الحب يُؤتَمَنُ عليها ضميرُهُ .

يارحمةً لهذا الجمال كله إذ يُباع كأنه عَرَض من العروض التجاريه وهل يُكفِّر عن جريعة القتل أيها الأغنياء أن تكون دِيَة القتيل كفناً من خيوط الذهب ؟

ألا بُعداً ألا بُعداً . ولعمرى أي سُخرية من الجمال أقبحُ من أرسال الجميلة لتُقلَّمَ بألحاظها أظفار الوحش ؟

غفرانك اللهم أَفرَغتِ السماء فلم يبق فيها رَجمٌ واحد يسقط على شيطان من أولئك الشياطين فيتركه عبرة خالدة فى تاريخ التجاره بالجمال الذى أَبدَعت ؟

أُيوثَق فؤاد الحسناء بالسلسلة الرّبوض التى صيغتْ من كلمات الزواج ثم يُشدُّ طرفها فى يد الرجل الذى تكرهه أو ستكرهه لانه شخص البغض ويقال مع ذلك انهما ارتبطا برباط مقدَّس . . : ألا تسمع أيها البغيض صَلصَلة هذه السلسلة فى دموعها أو فى تنهُّدها أو فى أنينها وكل ذلك لَعنَات تنسكب من جوانب روحها ؟

سَوْأَةً لك أَيُعيد التاريخ نفسه وتكون أنت الصنم الذى تُقرَّب له الذبيحةُ وعيناه جامدتان تبعثان الرعب والخوف وليس فيهما من كل تلك القدْرة الكاذبة الا جمودٌ ينظر بهزء وتهكم تلك النظرات الميتة ؟

عزاءاً أيتها الجميلة التى يغتذي قلبها من البغض ذلك

الغذاء المسموم فينبسط على شبابها خيالُ موتها ويجعل حياتَها نزْعاً واحتضاراً . وتُصبح فى ظل ذلك الغنى كواطيء ظله فى الرَّمضاء يحسبه الاحمقُ باردَ القَدَم لانها في الظل ولا يدرى أنه الظل النارى الذى يغطى الجمر بالدخان .

عزاءً أيتها الجميلة التي انفرد قلبها فى هذه الدنيا المُوحشة وكل محب يرى له قلباً يخفق مع قلبه فكأنه يعيش فيها بقلبين يضاعفان اللذَّةَ والسرور فى حياته . أما أنت فليس من قلب يخفق بالهوى مع قلبك حتى ولا قلبك يخفق معك لانك لاتحسِّين منه شعور الحياة في هذا الموت .

عَزاءً عَزاءً فقد كتب لكِ القدرُ ياروضةَ الورد أن يأخذ اليك طريقَهُ ذلك المحتطِبُ الجافى الذى يكاد ظل روحه يجعل العشبَ الاخضر يابساً فلم يكن له قرار الا أن تذْوي أغصانك وتنتثر أوراقاً ذابلة ليملأ منك حِبالَته غير مُبالٍ الاكما تبالى البهيمة ما عسى أن تُزهِق من

أرواح الزهر حين تَرمرَمُ من نبات الارض [1] وقد هدم منك يا روضةَ الورد قصرَ الشَّفَق الارضي فلا عجب أن تكون روحه لثقلها وظلمتها كأنها قطعة من روح الليل :

ها أنت اليوم يا زينة الآمال كالباب المهدوم بين الماضي الذي كان قصراً وبين المستقبل الذي هو من أنقاض هذا القصر فما يرى الناظر من هذا الباب الا كيف تنهدمُ الحياة وكيف يثور غبارها .

بلى قد يكون شقاؤك مِثالاً لِتبيّان حقيقة غامضة يراك الناس في حزنك فيفهمونها وما أكثر مثلها من حقائق الحياة التي لا تُضرب لها الامثلة الا من القلوب والأكباد فاخبري الناس من هؤلاء الحَمْقَى والمجانين ان الذي يطلب سعادةَ نفسه بالغنى ويريد ان يشتريها من الله بالمال الكثير

---

(١) أي تأكل وتتناول وأصلها ترمرم

تحويلاً على البنك . . . انما هو كذلك الأبله المغرور الذى يستقبل شمس الظهيرة وهو يريد ان يطرح ظله أمامه وتأبى الشمسُ الا أن تجعله الى الوراء . فلا يكون لهذا المخدوع بنفسه الا احدى اثنتين . إما أن يستدبرَ الشمس ويجرى على قواعد النور في الحقيقة لا فى الوهم فيرى الشمسَ نفسها قد ألقت الظلّ أمامه كما يريد . وأما أن يمضي على ماتخيّل فيكون أمامه ظله ولأنفه بعد ذلك الرَّغم والدَّغم .[1]

ويالله ما أغلى الحقائقَ فى هذه الدنيا اذا كان من ثمنها مثلُ هذا الجمال الغضّ الذي يرخص فى شرائه القلبُ

---

(١) يقول العرب في ناشئة الغيظ رغماً لانفه . فاذا استفحل الغيظ أتبعوا الكلمة وقالوا رغماً دغماً . فاذا تميزوا من الغيظ قالوا رغماً دغماً شنغماً فتكون اللعنة باللفظ أشد عليهم من اللعنة بالمعنى . . . وهذا ما نفهمه من ورود هذه الكلمات الثلاث فى اللغة

على حين ترخص فى شراء القلب الحياة . الحقيقة الخالصة كالصديق الخالص المخلِص يجد الانسانُ من المال والمتاع ما يبذله ثمنا للدنيا فيحوزها ولا يجد ثمن الصديق الا أن يبذل له ذاتَ نفسِه

أى عدوٍّ لَصِيق نفذ الى حياتك أيتها الجميلة وقد تكفى نظرةٌ واحدة من عينيك النجلاوين وابتسامة واحدة من فمك الوردى ليؤلف الشاعر من وصف تأثيرهما فى نفسه كتابا خالدا فى فلسفة الصداقة وجمالها . ولذتها فى النفس وحلاوة آمالها لقد انفذوا فى قلبك مسمارا من الذهب . . . واصبحت لا تشعرين من ثقل الحياة وآلامها الا أن هذه الشمسَ مِطْرقة ذهبية ترفعها الاقدار لتدق بها عليه من لَدُن تُشرِق الى أن تغيب . فالألم الشديد فى بقائه واشدُّ الألم فى نزعه واذا انتزعه الموتُ أو غير الموت أورقت لك الملائكة يوما فجاءتك فى ثياب الحدادين لمعالجته واجتذابه فهل يُنتزع من

نابك هذا الثقب العميق الذي أحدثه فيه وملأ غوره بالالم ومرارة الحياة ؟

يا لها عداوة ثابتة بعقدوشبود ... وبين القبور والرضى والبركات ... وفى ثياب العرس أيضاً .. ويالها سخرية فظيعة من القلب الانسانى ومافيه من الفضيلة والحب . وياله من نفاق بارد يراءى به الله خالق القلب وتقابل به الملائكة موئل الفضيلة وتواجه به هذه الحسناء عروس الحب فى وقت معاً .

وكم من مرة رأيت عالماً يوثّق عقدة الزواج بخطبته وكاهناً يربط القلبين بكلماته رباطاً مقدساً فكنت أهتز من الفرق الى القدم خشية أن تكون روح المصادفة العمياء فى ثياب هذا العالم أو الكاهن فان ثلاثة تأتي الى الانسان من تلقاء نفسها وهو ينتفى منها جهده . هذه المصادفة والعداوة والنحس . وقلما أحس إنسان باحداها ؛

الافوجيء بثلاثتها جميعاً وكذلك أشأم مايعد في الشر تعدد شؤمه .

وأنت أيها القمر حدثني بربك . ألست تسخر من هؤلاء الكتاب والادباء والمصلحين الذين يصفون داء الشرق المريض المحتضر بمقالات أكثر عدداً من تراب القبر ثم يريدون ايصفوا دواءه فتراهم من اختلاط آرائهم وتنوعها كأنما يحملون صيدلية بحالها الى بيت المريض زعماً أنهم مهما أخطأوا فلن يخطئوا أن يكون في بعض ماتحتويه من السوائل والعقاقير مافيه شفاء . . ولا يعلمون أن التاريخ الانساني وان لم يكن نسائياً غير أن المرأة هي التى تلده وترضعه بأخلاقها حتى يتماسك ويَدْرُجَ ثم يذهبَ يافعاً . وان العَظَمة التاريخية وان كانت مُترَجلّةً الا ان في باطنها دائماً روح أنثى حتى إنها أعظم ماتكون اذا همّت همّها لشيء من آمال هذه الروح .

السفينة لا تزال تجرى بمجدا فيها ما اتجها فى الحركة الى جهة واحدة فان اختلفا وتدابرا في هذه الحركة التوت السفينة أولاً واضطربت ثانياً وانقلبت آخراً . وهل الرجلُ والمرأة الا مجدا فان فى زورق البيت (العائلة) الذى يَعبرُ بهما نهرَ الحياة ؟

ألستَ تعلم أيها القمر وأنت ابن الصحة والعافية الذى هَرِم ولم يزل فى أنه مادمنا لا نرى عند رأس هذا الشرق المريضِ الا لِحىً وشواربَ فاننا لا نرى ثَمَّتَ الا أعشاشَ الجراثيم الاجتماعية . . . وأنه اذا وُجد هناك نساء من أمهات الحب والفضائل وُجد معهن من يَلِدْنَهُم من رجال العزم والمبادىء الثابتة . وهل الحب والفضيلة والعزم والمبدأ المخلوق منها جميعاً الا عناصر الطبيعة الحية فى التاريخ الذى لا يموت مع بقاء مادته من الانسان ؟

واهاً لهذا المريض الذي يوثقونه بتلك الرُّبُط الممزقة

من المقالات ويدفنونه فى هذه الأكفان المنشورة من الصحُف ولا يَدَعونه يتنفَّس الا من جراثيم اللحى والشوارب التي تُريه ظلال الآخرة . . . وهو فى كل ذلك الكرب الذى أخذ بأنفاسه لايجد السبيلَ الى رَوْحٍ من الحياة الطَّيبة فى نَفَس امرأة فاضلة .

الشرق المريض

يا مَن لهـذا المريض المدنَف العانى
مُردَّدِ النفس من آن الى آن
اذا رأى الليلَ ظنَّ القبرَ شُقَّ لهُ
وظنَّ أنجمَهُ آثارَ أكفانِ[1]
ويحسبُ الصبحَ بابَ الموت لاح لهُ
وفوقَهُ الشمسُ قُفْلٌ فتحهُ دانى

(١) كأنها قطع مبعثرة من كفن أبيض متمزق

نِضْوٌ على رَمَقٍ فانٍ يعيشُ به

لكنه رَمَقٌ مهما يعشْ فانِ

مُطَرَّحُ الهمِّ في كل الجهاتِ فما

يرى بكلِّ مكانٍ غيرَ أحزانِ

تَؤُزُّهُ. كَبِدٌ. حرَّى مُعلَّقةٌ

من الأضالع في أعوادِ نيرانِ

***

يا من له إذ يرى الدنيا كما اشتَبَهَتْ

بقيةُ الحلْم في أجفانِ يقظانِ

يا من له إذ يرى الأشياء واهنةً

كما بدا أثرُ الذكرى بنِسيانِ

حتى طريحٌ يراهم يُلحِدونَ لهُ

لم يستحوا ان تراهم منه عينانِ

يامن لذا الشرق يامن للطريح على

لحدِ الزمانِ بأيدي شرِّ اعوانِ

مُسْتَيئِسين ولما يأملوا أملاً
واليأسُ داءٌ لنفس العاجز الوانى

ويسبقون الردى للقبر وهو قضاً
فى الغيب(١) فاعجب لهذا الشأن من شانِ

ويُذعِنون ولا ما يذعِنون لهُ
لكنَّه خلقٌ يقضى بإذعانِ

ويسألون المُنى تجرى بلا عمل
كالريح جاريةً فى غير ارسانِ

سُخْفٌ وأسخفُ منه وهو معجزةٌ
وضلةٌ أن يُسموه بإيمان

***

ياويح للشرق من أمر به لبكٍ
كالهمّ ملتبسٍ فى رأى حيرانِ

---

(١) اى لايزال معلقا لم يقع بعد

من كل مُضْلِعةٍ ترمى بمُعْضلة

رمى النحوس لذي بُؤْس بحرمانِ

تعقّدت والتوَتْ كالمستحيل فما

تُريك من موضع فيها لإمكان

لو صوَّروها لكانت صورة امرأة

مصبوغة من جهالات بألوانِ

ربُّوا لذا الشرق ياقومى ممرّضةً

تحنو عليه بإحساس ووجدان

تطبُّه روحها مما ألمَّ به

فان أقتلَ داء الشرق روحانى

يرى عواطفها الأديانَ خالصةً

اذا تلعَّب أهلوه بأديان

يرى بها عهده عهدَ الملائك فى ال

بر الطبيعىّ فى حسنٍ وإحسانِ

يرى حناناً كعهد الانبياء وما
تشتاقه الروحُ فيه منذُ أزمانِ
يرى الفضائلَ بعد اليأس قد ظفرت
آمالهنَّ ونالت قلبَ إنسانِ
ربُّوا له الأمَّ ياقوم فلو وُجدت
فى الشرق ماطاح فى ذلّ وإهوانِ
تلك التى ترفع الدنيا وتخفضها
بطفلها فهْوَ والدنيا بميزان
تلك السماء التى نُلْقِي لهم ملكاً
فلا يربُّونه الا كشيطان
تلك التى جعلوها فى المنازل كالـ
مِرآة مطروحةً فى دار عُميانِ
ذنبُ الرجال ولكنَّ النساء به
مُعاقبات بآلام وأشجانِ

كمقلة العين في آلامها اعتلجت

والداء ما مس منها غير أجفان

⁂

لهفي لجوهرة زهراء ما سطعت

في جيد غانية أو فوق تيجان

لهفي لريحانة خضراء ما قطعت

الا لتذبل في راحات نشوان

لهفي لغانية عذراء ما وضعت

الا بمنزل أسواء وأضغان

لكل معنى جميل ما يلائمه

كما تمازج ألحان بألحان

وليس يطرب صوت الماء منحدراً

كما ترى وقعه في سمع ظمآن

فيا إلهى اذا اجريتَ فى قَدَرٍ

يوماً بأن يلتقى فى الناس ضِدَّان

فاجعل لُطفك معنًى فى التقائِهما

كيلا يكونَ من الضدَّين زَوجانِ

فما خلقتَ كمثل البغض فى امرأةٍ

ينالها رجلٌ يوماً بطُغْيانِ

ولا خلقتَ كمثل الذل فى رجلٍ

تَسومُهُ امرأة سوءٍ بعُدوانِ

***

يابانياً بقلوب الناسِ يجعلُها

قصرَ الحياة تبصَّره أيُّها البانى

أسِّس على الحب لا تلقِ القلوبَ سُدًى

وَضعْ لكل فؤادٍ شكلَهُ الثاني

فلستَ تبني سوى دار اذا خَرِبَتْ

أركانُها خرِبتْ من كل عُمران

دارُ السعادةِ دارُ الحب دارُ مُنى الـ

أحبابِ دارُ الغرامِ الخالدِ الهانى

آه يا قمري الحبيب وياحبيبي القمر . (١) ان الحب لا يخلق الا الحب ولكن جمالها الرائع يصور لى مقابح الناس ومعايبهم كان عينى منذ صار فيها شيء من نور ذلك الجمال الساطع صار فيها شيء من نور الالوهية الذى يخرج منه كل ليلة فجر جديد ولا يفنى . فلا أنظر الى خلقة المعانى ولكنى أنظر الى تركيبها الخاقى ولو كانت لك أيها القمر هذه النظرة فى شؤون الناس وحيل الاعداء وأحوالهم لارتمضت واخترمك الهم من زمن بعيد ولما بقيت الى اليوم بهذه الطفولة الالهية التى تملأ السماء ضحكا وغبطة .

صُبَّ ظلام الليل كله فى قلبي وقى من عداوة لئيم تسوّد وجه الدنيا فى عينى وتجعل قلبى من يأسه وانقباضه كأنه مملوء بالدم الغليظ الفاسد الذى ركد وخبث بعد أن سال من جروح الصداقة . ولك الله ايتها الصداقة

---

(١) الخطاب لقمرين فى قمر واحد

الشَّريدة فى هذا العالمَ فلا تلمُّ باحدٍ فى حَوادث الحياة الا كما يلمُّ ضيفُ البَيْداء إذ يتغطى بُملاءَة النهار ناءٍ فتى أظلمت الفجاجُ المُسفِرةُ انطلق عليه سَواد . وهل أشدُّ وأوجُع لعمرى من سقطة انسان يتغفلَّ عنه صاحبه حتى يستنيم اليه ويرتبطَ معه على سَواءٍ يثبُ به فجأة وقد خذله خذلاناً نارياً وَقدَت له عداوته ؟ ومن الذي يستطيع أن يتوقَّ هذه المفاجأة بل كيف يستطيع وأية قوة فى الارض تمنع سقوط أحد العِدْلَين[1] المتوازنين على ظهر البعير السائر اذا خفَّ الآخر وأخل بالموازنة فلا يكون قد دفعه ثقله أكثر مما يدفعه الثقل الذى فقده ؟

يالله أنجد عداوة ثابتة ولا نجد صداقة كالعداوة على الاول . . لقد أصبحت هذه الصداقة جسما حياً بنوع من

(١) العدل بالكسر ما يقال له الزكيبة والغرارة

الحيـاة المـادية يتمثـل فى كل صديق فترى عـلامة
حياتها وقوتها فى الاصدقاء أن يصافح بعضهم بعضاً بالايدى
ويدوس بعضهم بعضاً بالأرجل فكأنهم اذا اكتفوا بالمصافحة
واجتزءوا بها مما عدا ذلك خافوا على أرجل الصداقة من
الشلل إذ هى مُنعت من الحركة ... أما القلب الذى تحيا به هذه
الصداقة الخالدة ... فهو الحب الثابت الذى لايتغير ولا يتحول
ولا ينقص بل يزيد كما يصفه الاصدقاء فيما بينهم. ذلك الحب
الذى تسميه أقوالهم أسماء مُنتحلة ولكنك حين تتعرفه من
أعمالهم لاتجدها تعرف له الا اسماً واحداً وهو الطمع ...
فاضحك الآن من صداقة الناس أيها القمر الذى يعيش
بالطفولة الالهية وها أنا ناظر اليك فعسى أن يسقط الى قلبي
شيء من هـذا الضحك ، فان لم يكن فعنًى منه يجعل الفكر
ضاحكاً ، فان لم يكن فلا اقلّ من أن يحرك فى ذاكرتى
ذلك الهواء العطِر الجامدَ فى بعض زواياها فيندفع الى قلبي

بذلك الرَّنين الذى حفظته الذاكرةُ من ضَحِك تلك الحسناء الفاتنه قبل ان تحقّ النوى وينصدعَ الشمل وأبقته على نفسى لتُسمعها منه في هذا الفراقُ الطويل ألحانَ الحب والأمل

—+﴾⁎﴿+—

الفصل الاخير

والآن أراك أيها القمر أنشأت تنحدر مسترسلاً كأنما رفعتك الملائكة وأخذت تمشي بك الهوينا لتجملك في الأفق نافذة يستطل منها وجه الفجر. وقد جعل الليل ينطوي كأنه غطاء الموت تكشفه الملائكة عن الارض وتلفه من ههنا وههنا لتتنفس الحياة من تحته ثم تجمع عليه أطراف هذه القمراء (١) لتحرزه فيها وترجع بالموت إلى السماء مطوياً منك أيها القمر في قطعة من الخلود.

وتطايرت النسمات من الارض خفيفة لاتثبت كأنها أرواح الاحلام مسرعة في الهواء يدافع بعضها بعضاً وهي

---

(١) القمراء ضوء القمر المنبسط المتمكن من الارض ومثله من الشمس يقال له الضح بكسر الضاد وتشديد الحاء

تلتقى عند الأُفُـق بنَسَمات رقيقة هادئة تبعث على القلوب أنفاسها فتستشعر منها رَوْحَ الجنة كأنها آتيـة من هناك لتـكون أرواحاً للازهار المَطِرةِ التي يذبتُ بها ضوء النهار الجديد .

لقد بدأت الحقيقة أيها القمر تتوارى معك فى حجاب الغَيْب فهلاَّ تلبَّثت قليلا ياصـديقي السماوي الذى آنستُ منه معنى الخلود والذى لم أكد أصادفه حتى ملأَ قلبي من نور السماء وجمالها وجعلنى أشعر بمعنى الاخلاص فى الصداقة وهو أحد المعنيين اللذين لا يشعر بهما إلا أسعد الناس فى الارض طُرًّا . ألا وهما الاخلاص في الصداقة والاخلاص فى الحب ؟

الصداقة كما عرفتُ منك ياصديقي السماوى لا تكون كذلك حتى تدع الانسان كأنه يشعر فى السرّاء والضرّاء بنفسين فيضاعَف له السرور لان كلتا النفسين تطلب الزيادة

منه ويضعف عنه الهمّ لان كلتاهما تعمل لمقصه إذ هو همٌّ نفس واحدة توزّعته نفسان . ويكون الانسانُ فى الحالة الاولى كأنه يتلقّى رُوحَ النعمة لنفسه بروح السرور من صديقه وفى الحالة الثانية كانه يتلقى روحَ الجزع بروح الاطمئنان . وان أشقى الناس من لا يستطيع أن يجد إلى جنبه في سَوْرَة الجزع نفساً أخرى تجزع له باطمئنان وسكون ليطمئن فى جزعه وهى الصداقة بعينها وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم .

ولقد نادمتك منذ الليلة يا صديقي السماوي بهذا الحديث فهل مَلِلتَ فمِلْتَ ، أم أنت قد مللتَ ؟ حاشا أن تكون كالاصدقاء فى هذه الأرض تُقدَّر فيهم آجالُ العواطف الرقيقة بالساعات فكأن الانسان يقرأ فى قلوبهم رسائلَ مُوجزة يفرغ منها قبل أن تفرغ أفواههم من كلمات التحية والتملّق وغيرها من الاشواك الليّنة التى

أحاط الله بها هذا الورْدُ من شفاههم . . ؟ ولا يكون للرسالة منها حظ من إطالة النظر الا اذا كان فيها همٌّ يشغل النفس فيكون عمرها بمقدار اغتيال الفكر فيها . . ؟

أنا منك أيها القمر منذ الليلة كالعقل المنكمش فى ظل القصيدة الحكيمة من الشعر السّرِيّ البليغ تُثيرله الابدية بأشعة معانيها لينفذَ بالنظرة الصادقة فى اعماق الحياة وقد نظرتُ طويلا وملأتَ عيني من نورك وجعلت مايعترضني معنى الا بادرتُ أُبدُّه النظرَ "(١)" وأُرسل على حقيقته من هذا الضياء . وها أنا لمَّا أكد أبلغ أقربُ هذه الأعماق من الغوْر البعيد فى قلب الانسان . ولقد أراك مُستوْفِزاً تجمع أشعتك فى هذه الأنفاس من نسمات السَّحر كما تجمع الحسناء أشعة فكر محبها الملتهب بأنفاس

---

(١) أى أمده اليه مدا

التنهد والعتاب ، فبماذا أستفيء فيما بقى من هذه الاعماق الكثيرة ؟

لعل الحكمة الالٰهية لا تعطى للانسان الا بمقدار يلائم طبعه مخافة أن تفرُط عليه أو تطغَى اذا حمل منها ما لا يتفق وضعفه كالخف ّ (١) الذى يجده المريض فى ناشئة العافية ان اقتصر عليه انتفع به وان هو اندفع يطلب المزيد منه انتكس . والطبيعة نفسها تخفى عن الانسان اكثر الحقائق رحمة منها بالعواطف التى هى قوام نفسه فيحنُّ الى الأزهار والأشجار مثلاً ولا يعلم انه ينجذب بشعوره النفسى الى بقايا الانسان الذى اغتذت به الطبيعة فى الاجيال الغابرة وما يليها فكأنه من ذلك بإزاء قبر نباتى : وإن هو علم واكْتَنَهَ وغالَبَ الطبيعةَ على نفسها كشفت له هذه الطبيعة الحقائقَ الاولى التى يسترها عنه جهله الانسانى وهى

---

(١) هو النشاط يجده المريض حين يتماثل

في نفسها ظاهرة لانها تستر ماوراءها من العلم الالهي ثم تركته عندها حائرا وأبت عليه الا ان يكون كالعريان الذي يلبس ثوباً من الظل

فالحقيقة المطلقة كالحياة حرب لا انتصار فيها الا الموت فلا تضع أوزارها وانما يقع المتقدم ليتقدم المتأخر فيقف موقفه ويسد مسده ويجاهد طويلاً أو قصيراً ثم يسقط ولا يثبت من الحقيقة الا شيء يسير يشبه فرق ما بين التأخر والتقدم كما لا يثبت من الحياة الا شرف هذه الخطوة وعارها للجريء الباسل والمفؤود الجبان .

لقد ساهرتك أيها القمر لأحادثك وناجيتك لأستخرج الفكر من نفسي فانه لا يستدعيه شيء كالحديث . وانتضيت هذا الفكر لاجتلي منه الحقيقة النفسية المحجبة . وتأملت الحقيقة لارى ذلك الشعاع الالهي الذي لا يخالفه شيء حتى يذوب فيه الى شعاع مثله وهو نور الحقيقة الذي رأيناه في حبة القلب

فسميناه الحب . ولقد ملأتَ قلبي منه وأسبغته على إسباغاً ومددت لي فيه حتى تناولت به الجمال السماوى وجعلته فى قلبي بجانب هذا الجمال المستفيض كأنه الموجة القلقة التى يمسك منها الساحل طرف البحر . فاذا افلت الآن وقد أمسيت صاحب سرى وداخلة أمري أفتراك مغلقاً وراءك باب الحلم الذى منه يقظةُ الامل في هذا القلب . وهل تاركي أنت لأتلقى مع الصبح هذه البقايا من الاحلام تنفر خفافاً وثقالاً دون أن تضيء لي معانيها بأشعتك التى تنبعث من مصباح الحب على كل جهة فى الارض فعسى أن تكشف لي منها عن بقية من أحلام تلك الحبيبة التى اسرفت فى دلالها حتى إنها لو ملكت البخلَ لبخلت به فأتبيَّن ما فيها من تصورات نفسها وأمزجها بنفسي ؟

آه ليت الهواء الذى تتناثر فيه قُبَلُ الحسناء وليت نسيم الصبح الذى يحمل الى الغيب أحلامها مما يمكن أن يُحرَزَ

ويُدَّخر إذن لكان فى الحب شىء أسمى من الخلود نفسه .

ولكن هيهات هيهات فما رأيت كالحب لايملك من الماضي الا ذاكرته وهى مع ذلك تردُّ عليه لذات الماضي كلَّها حسرات . وإن الظفر بزهرة ناضرة معقودة فى غصن قد ذَوَى وتَحاتَّ ورقه لأيسر منالاً من بقاء قبلة واحدة فى ذاكرة المحب حافظة نفرتها وعطرها من أنفاس الحبيبة وريقها .

هكذا كتب على الحب أنه من تولاه فانه يدعه على حال كأنه فيها روح لاجسم له فمهما يصب من لذة أوألم فانه يتحول معه الى اللذة والألم جميعاً فيكون ألماً لذيذاً .

ومن أجل ذلك خص المحبون من بين الناس بكثرة الشكوى لانهم يستلذون آلامها والعاشق الذى لايستطيع أن ينفس من شكاته أولايجد من يستريح الى بثه لاعج الشكوى مما برح به انما هوفى الحقيقة المثال الانسانى الشاذ الذى يمكن

أن يتعرف منه العلماء معاني الجنون مع بقاء عقله فهو المجنون العاقل .

لشدما أحاول أن اصف الحب وصفاً طبيعياً يدنيه من هذه الأفهام الغليظة الجاسيه تريد ان يخلق فيها الحب من اوصافه لتفهم الصفة والموصوف معاً . . . وان الانسان ليستطيع ان يحيل الجمر فيجعله رماداً ولكنه متى همد الجمر بقى رماده كأنه همود القدرة الانسانية نفسها فلا سبيل من بعد الى بعث الحياة النارية فيه . وقديماً كان هذا من شقاء اهل العقول فى الناس فان المصلح يستنفد قوى عقله فيهم ولا يزال يأتيهم بكل شيء عفواً سهلاً لا احتباس فى امره حتى يأتى الموت على نفسه ثم لا يكون الا ان يعرفوا بعد ذلك انه كان مصلحاً . . . كالذى ينظر حتى يحور الجمر لعينيه رماداً فيعرف من الرماد انه كان جمراً .

ولو فهم الناس الحب على حقه لاستجدوا لانفسهم عقولا

فان الطبيعة نفسها متى أرادت أن تجدد إنساناً لتبعث منه رجلا من رجالها شاعراً أوحكيما أو بطلا تجلت على نفسه فى صورة إحدى الحسان وتركته محباً فلا تكون آلام الحب وآماله فى باطنه الا تغييراً نفسياً كأنه على ذلك إنما يهدم ويبنى.

وأعرف رجلا من الناس كأنه نزغة شك بين أهل العزائم وهو من أولئك الذين لا يعرفون الحب الا باعثاً من العبث وباطلا من البطالة وقد جمل يصفه مرة بانه جنون أونوع من الجنون وان الشباب ينتحر به انتحاراً لذيذاً كما ينتحر الصينىُّ بالافيون إذ يستل روحه فيتأمل فى جوانبها ويتملي بإشراقها ويلذ هنيهة بأجمل ماصنع الله ثم يردها مريضة كليلة قد حال من الخمود حالها ثم يفيق وينبعث كأنه مطرود من السماء . ورآنى صامتاً كأنما تبعثرت نفسي[1] فمر فى هذيانه عجلا غير رائث كأن شيطان البغض

---

(١) أى جاشت وغثت وانقلبت ونحوها

ينفث على لسانه وكأنه ليس فى الارض محب غيرى فليس فيها عاذل غيره وأنا فى كل ذلك أصعدفيه وأصوب فلاتأخذمنه عينى الارجلا موضوعاً فى جلده وثيابه كما يُطمر لوح الثلج فى اللفائف والقشور .

الحب جنون ولـكن النبوغ جنون كذلك . اما الشباب الذى ينتحر به فانما هو ذلك الشباب الهرم الفانى الذي يعـدل فى بعض النفوس الضعيفة ذلك الهرم الشاب فى بعض الشيوخ المتصابين : وليت شعرى ماعيب الغذاء الجيد اذا تناوله المحموم فـكان غذاءاً لعلته وحال منها الى علة جديدة ؟

مثل ذلك البغيض يرى الدنيا كأنها معدة واسعة وكأنه فيها قوة من قُوى الهضم . . . فالمعانى التى لامادة فيهـا هى عنده بسبيل المادة التي لامعنى لها . ولن يستطيع أن يُفهمه معنى الحب الصحيح بمـا تشعر به نفسه الامن كان فيه شيء

من القوة الخالقة إذ لا فرق بين من يقدر على ان يجعل المعدة قلباً ومن يقدر على ان يجعل مثل هذا محباً ومن يقدر على ان يجعل انساناً من الناس كأنه أحد الملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون... ومهما جاهدت به فانك لا تزيده الا يُبْساً وموتاً كأشعة الشمس تُميت الزهرة التى نفدت مادتها وهى نفسها التي كانت تحييها من قبل.

لا نقصَ عندى من الرجل الذى يحاول التمام فيتحول الى معنى واحد فيكونَ عقلاً كله اوقلباً كله او بطناً كله لانه لا يتم بواحدة من تلك الا اذا كان فيه العالم كله.

انما هى ثلاثة: المبدأُ الشريف للنفس والفكر السامى للعقل والحب الطاهر للقلب. هذه هى معانى الكمال الانسانى

واذا أنت رأيت من ينتحل الحب جباناً بكيئاً متبلداً كأنه حشرة فى ترابها ورأيته يبكى بجوارحه وأعصابه المتألمة بدموع أقبحَ من صَبيب العين الرمداء يغسل بها الحب ليجمله

طاهراً بزعمه كما يُغسل الميت.. فاعلم انه راجع من آخر الطريق وهو يحسب ضلة انه فى أولها لأن عواطفه قد هرمت وأقبلت تَدْلُف فى سبيل الحياة. ولا غرْو فانك ترى الطفل يتدفّع مسرعاً كأنه واثب الى المستقبل والشيخ يتسكع مبْطئاً كانه منقلب منه والحب والحياة شبيهان فى الطفولة والهرم.

آه ما أبعد ما أحاول وصفه فاننا نُلقى الفاظنا الكثيرة فى هذا الشعور العميق الذى نسميه الحب ونظن اننا استخرجناه فيها وأن الالفاظ قد لبسته حتى لا فَضْلةُ منه. وما أشبه ذلك من عملنا بصَنيع رجل يُدلى فى أبعد غوْر من المحيط حبلا قد طاول به شعاعَ الشمس حتى اذا هبط القاعَ جذبه فلا يجد فيه من المحيط كله الا قياس العمق فى لجة واحدة يومىء اليه بلل قليل من نَضح الماء.

ماذا تبلغ العبارة من حب تخرج كل أنَّة فيه

وكأنها صوتُ انقطاع خيط من خيوط الحياة فى القلب ؟

وماذا تبلغ العبارة من حب يتألم صاحبه وهو يجهل سبب ألمه فيحسبه بعض الحمقى يتألم بلا سبب وهو فى رأى نفسه كأنه يتألم بكل أسباب الآلام ؟

بل ماذا يبلغ الكلام من حب يجعل الحياة كأنها كلمة رضى فى شفتى الحبيبة ويجعل الحبيبة نفسها كأنها كلمة رضى فى شفتى الحياة ؟

وتُرى ماذا تبلغ عبارتك أيها اللغوى من حب تتجلى به الحسناء الفاتنة على محب دَنف يراها محاطة بأشياء لا يعرف ماهى الا انها تجعل لتلك الحسناء فى عينيه مهابة الرجاء الذى يوشك ان ينقطع ، والخصوفِ الذى يوشك ان يندفع وتظهرها له كأنها مثال لثورة العقل الانسانى الملتهبِ .

وتجعل الفاظَها ومعانيَها ولَمحاتِها كأنها أضواء منبعثة من عالم روحى هو أقرب الاشياء وابعدها كتخيُّل الحقيقة والحقيقة نفسها ؟

ثم ماذا يبلغ شعرك أيها الشاعر من حب انت تحتال على تمثيله بالشعور الذى تستوحيه من كل ماهو جميل فى السماء والارض لتصف بكل ذلك فكراً فى رأس رجل وعاطفة في صدر إمرأة ؟

ضع اللغات كلها فى فم المحب فان خفقة واحدة من قلبه ستجعلها كلها بلا تأثير كأنها صمت ناطق لأن هذا القلب هو الساحل الذى تقف عنده أمواج الالفاظ بطبيعتها أو بطبيعته ولو ترامت من جوانب هذا الخضم الذى يجيش بالحياة . ولا ارى غير شيئين لا يتخطى اليهما عقل الانسان ولا تنالهما لغته : ماوراء القلب وما وراء الطبيعة .

الحب : احدى كلمتين هما ميراث الانسانية وهدية التاريخ والطرفان اللذان تلتقي عندهما السماء بالارض

كلمتان ليس لهما من المعانى غير الحقيقتين الخالدتين حقيقة الالوهية في الروح وحقيقة الأنسانية في القلب : هماف الدين والحب . خرجا من الجنة مع ادم وحواء فكان الدين في تقوى آدم وتوبته وكان الحب في جمال حواء ودموعها .

فيا ايها القمر الذى اشرق لآدم وحواء ليلة هبوطهما فكافاه بكل ماقدرا عليه وهو ذلك الابتسام الذى يشبه نوراً منبعثاً من قرين . وبقيت فيه من يومئذ رقة الفضيلة ومسحة الجمال وجاذبية الحب وبقية من تلك التعزية الانثوية التى لا تزال تحتها ارواح العاشق في كل بقعة طلعت عليها من الارض .

أيها القمر الذي لايزال يشهد من كل عاشقين آدم وحواء ولايزال يبعث في كل دمعة من دموع الحب روحاً

نورانية من شعاعه تبث فيها انفاساً من حياة الاحلام وتجعل العاشق يرى كأن هذه الأحلام اللذة المؤلة تنصب من أجفانه المغرورقة وهو يقظان لان حبيبته الحسناء تبخل بها عليه وان كانت أوهاماً .

أيها القمر الذي هو قلب الليل ممتلئاً من ابتسام النية الطيبة ولا يزال الليل رحيما حتى بالمجرمين واهل الآثام .

أيها القمر الذى هو تاريخ النور على الارض والذى يُشرق على الطبيعة بجلال وهيبة وكانه يُرسل الى هذه الارض فى كل شعاع نظرة مَلَك من الملائكة لتعزية قلب من القلوب المتألمة المحزونة .

ايها القمر الجانحُ الى المَغيب فى نَسمات الفجر كأنه جَناح الحب يخفقُ به فى الفضاء على هواء عليل من الزفرات والتنهد

أيها القمر ايها القمر ! ليس شيء اقوى من الحق ولكنّ الشريعة في يد الظالم تجعل الباطل اقوى منه . وليس شيء اعنفُ من البغض ولكنّ الجمال الذي يتولاَّه اصطلاح الناس يجعل الحبّ أقسى منه . فيالله كم تحلم قوة الانسان بالحرية وكم يحلم شبابهُ بالحب ثم يستيقظ الانسان اطالعة من الحوادث فلا يجد من نفسه وقلبه الا ما يَحُدُّه ويصِفه اهلُ التشريع واهل التشريح وتغيب تلك الاحلام الالهية كلها بغياب الوجه الجميل الذي بعث فيه القوة من عينيه والشباب من فمه كما تَغيب الآن كلُّ أحلام السُّعداء معك ايها القمرُ بعد ان طلع عليها الصبحُ كأنه اشعةُ الحياةِ التي جمعها الليل من أعيُن النائمين .

-+-+-+-

(بيان الخطأ والصواب)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٧	بروحه	روحه
١٢	١٢	فى	...
١٤	٧	الحسن	الحس
١٦	٢	يدبح	يذبح
٢١	٤	فاطاعهاأرادته	فاطاعها كأنهاأرادته
٢٢	٩	فوذا	فأذا
٢٥	١	بقابه	قلبه
٢٨	١١	والا	والله
٢٩	٣	العدبة	العذبة
٣١	١١	وليأخذ	وليأخذ
٣٤	١	تتراكم	تتراكم
٣٥	٣	يحيء	يجيء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٩	١٠	مزيج	مزيج
«	١٥	قَوبكَ	قَلْبَكَ
٤٤	٧	نفيض	تفيض
٤٤	١٣	تتنفس	تتنفس
٤٧	٨	اتهينا	انتهينا
٥٤	٧	صدفةً	صدفةٌ
٥٧	٧	منزلة	منزلة
٥٨	٤	الملك	الملك
«	٨	زَلزلت	زلزلت
٥٩	٢	فاتك	فأنك
٦٠	٢	نُفْنِه	تُفْنِه
٦١	٨	نقرض	تُقرض
٦٤	٩	غمغمهُ	غمغمةٌ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٥	٣	على	...
»	١٠	بحيط	يحيط
٧٨	١٣	يتبلعُ	يتبلَّغُ
٧٩	١٠	الضغرى	الصغرى
»	١١	الفلسقة	الفلسفة
»	١٢	بتداخل	يتداخل
٨٧	٥	لا	إلاَّ
٨٩	٩	وكأنما	كأنما
٩٢	٨	يقر	يقرأ
٩٣	١٤	لثريه	إثريه
٩٨	٩	نكاد	تكاد
١٠٥	٢	مشعلة	مشتعلة
١٠٦	١٠	علبة	غلبة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٧	٤	يصله مرصده فلك الكوكب نفسه	يصله بها وكأن مرصده فلك الكوكب نفسه
١٠٩	٣	انكفَوا	انكفؤا
١١١	١	لستيقنوا	لتستيقنوا
١١٨	٤	سالت	سألت
»	١٣	وكاف	وكان
١٢٣	١٢	تترى	تنزَى
١٢٤	٤	نجيش	تجيش
١٢٨	١	صلب	تَصلب
»	٧	تخاق	تُخلق
١٢٨	٩	أريجا	واريجا
١٢٩	٧	معنى	معنًى
١٣٤	٨	اللدة	اللذة
١٣٦	٥	الصبّاح	الصيّاح

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣٩	٧	قذر	قدر
١٤٠	٨	نكتب	تكتب
»	١٤	اذا	واذا
١٤٢	١	فتتكن	فلتكن
١٤٤	٦	المطروب	الطروب
»	٩	الغصون	الغضون
»	١٠	السماء	السماء
١٤٨	١٤	اسعار	سُعَار
١٥٠	٢	واسفاً	واءسفاً
١٥١	٧	للأنحناء	للانحناء
١٥٢	٤	منفذ	منفذا
١٥٢	١٥	فالنظر	فالنظرة
١٥٣	٣	أصغرَ	أصغرُ
١٥٣	٧	ربع	ربيع
١٥٥	٢	الغنى	الغنى

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٥٦	١٢	فاخبرى	فأخبرى
١٥٩	٣	القيور	القبول
١٦٤	١٢	كالهمّ	كالهمّ
١٦٦	٥	ياقوم	ياقومى
١٧١	٥	يثب به	يثب ثم به
١٧٢	١	المأدية	المادية
١٧٧	٣	اغتيال	إختيال
١٧٧	٩	اقربُ	أقربَ
١٨٢	٤	الجاسية تريد	الجاسية التى تريد
١٨٤	١٣	بسبيل المادة	بسبيل من المادة
١٨٦	٩	فضلةُ	فَضْلَةَ
١٨٧	١١	والخصوف	والخوف
١٨٨	٤	إمرأة	امرأة
١٨٩	٣	هما فى الذين	هما الذين
١٨٩	١٠	تحتها ارواح	تُحِبُّها روح
١٩١	٣	اعنفُ	أعنفَ

مدنية العرب

في الجاهلية و الاسلام

تأليف

محمد رشدى الخبير

٦ ثمنه ستة قروش صاغ ٦